محمد سعيد الدغلي

الحياة الاجتماعية في الأندلس

وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي



الحياة الاجتماعية في الأندلس

وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي

الطبعة الأولى

١٩٨٤ م — ١٤٠٤ هـ

الحياة الاجتماعية في الأندلس

وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي

تأليف

محمد سعيد الدغلي

الاهداء

الى الذين سيعيدونها دولة عربية واحدة تقف عند حدود الاندلس

الى العرب يوم يستيقظون وينهضون ويتحدون

الى قومنا الذين سيتمردون على مفاهيم ملوك الطوائف ليقتدوا بالراشدين والامويين ، وعندها سنعيد الفراديس العربية المفقودة الى أحضان العروبة الأم ثم نتابع سيرنا المظفر في مقدمة الركب الحضاري .

اليهم اذا نهضوا واتحدوا أتشرف باهداء هذا الكتاب

سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

مؤسس الدولة الاموية في الاندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام باعث الامجاد الاموية والفاتح الثاني للاندلس شاب مغامر في الثانيةوالعشرين حقق معجزة الوحدة من شاطىء الفرات الى مصر فافريقيا فالفردوس في حين كبت همم الكهول من أقربائه الامويين تحت صوارم العباسيين وأماناتهم الزائفة فهو صقر قريش كما قال عنه قريبه وخصمه أبو جعفر المنصور ، ولولا همّة الشباب عند عبد الرحمن الداخل لذهبت الاندلس مع عصرالولاة أو لعجّل اليها الانهيار قبل ملوك الطوائف وبالتالي لما كان لي أن أؤلف هذا الكتاب عن الحياة الاجتماعية في الاندلس ، وكقصتي مع كتابي « الاشراق في البيان العربي » فقد بادر الشابان ابني مازن وصديقه وزميله الاديب الطبيب الشاب ماهر سقا أميني كبير أدبائنا الشباب الى اختطاف الكتاب والسير به في طريق الطبع كما اغتنم عبد الرحمن الداخل الفرصة وتحدى الصعاب ليكون مؤسس الدولة الاموية في الاندلس ، ولولا همة هذين الشابين الصديقين الصادقين لظللت مترددا في نشر الكتاب محتجا بالصعاب فلهما شكري وشكر الادب والعرب وشكر أمجادنا الرائعة في الاندلس .

وأوجه الشكر إلى مصممة الغلاف السيدة نجاح الحموي التي أضفت على على الكتاب كثيراً من زخرف الاندلس وأوجه لمطبعة الملاح ، والعاملين عليها مزيداً من الشكر والتقدير .

المؤلف
محمد سعيد الدغلي

المقـدِّمَة

لقد كنت أفكر بأن أكتب في أي من الموضوعات التي يعالجها مؤرخو الأدب العربي في الأدب الحديث حيث تتفاعل مع مشاعر الوطنية ونحيا في الوسط الذي أوحى الى الشعراء المعاصرين بقصائدهم في الغزل والوصف والمناسبات ، وفي الأدب العباسي بشعره ونثره ، أو أعود بالقارىء الى الشعراء الأمويين الاسلاميين فتنعم معا على سبيل المثال مع عمر بن أبي ربيعة في احدى جوانبه المشرقة ، تتعرف الى فاتناته وتتعرف الى أحاديث ملهماته فنتوغل معه ما استطعنا في خفايا النفوس النسائية التي عجز عن استشفافها بعده حتى الشعراء المعاصرون ووقف علم النفس بأبحاثه ومقاييسه دون الظفر الذي استطاع تسجيله بأدبه الرقيق وشاعريته المتفاعلة مع المجتمع .

أما الأدب الأندلسي فقد يكون البحث فيه أجدى من البحث في هـذه الآداب جميعا لتصويره تلك الناحية الصاخبة في اندفاعنا القومي وتسجيله مناحي الغليان العربي في الحضارة والفنون وفي مكافحة الاستعمار ، لا سيما ونحن ازاء كارثة ثانية وفردوس جديد مفقود . بيد أن بوارق الامل الآن ما تزال أكثر ميلا الى السطوع والانتشار نظرا لروح العروبة التي مـا زالت تنتظر الوثبة في أرجاء فلسطين ، ونظرا لوقوع هـذا القطر العزيز في قلب الوطن العربي يحفه الاباء ويحميه الانطلاق وتستعد لاسترجاعه دوافع النخوة والحمية في شعور من واجب الأخ نحو أخيه بل واجب العربي نحو نفسه ، وفي استذكار ماضينا المشرّف في الاندلس والاستعادة الذهنية للنكبة التي حاقت بأقدم قطر انتزعه منا الاستعمار ، ثم وفي تدارس الاسباب والمظاهر التي أدت الى ضياع الاندلس ما يدفع بالنفس العربية لا الى تلافي الاخطاء والتفكير بازالة الاسباب التي أدت منذ عهد قريب الى اضاعة فلسطين فحسب ، بل

والى التفكير في استعادة أمجاد العروبة التي خفقت أعلامها على أجزاء هامة من العالم الاوربي الغربي •

وبالمقارنة فان من المعيب أن نسمح نحن الاحفاد لهذه الاقطار والدول أن تنتقم من الاحداث وتعكس سير التاريخ لتبسط ظلها البغيض على بعض الاقطار العربية التي انبعثت منها فيالق المدنية والنور الى أرجاء الغرب •

ان في هذه الذكرى والمقارنة ما يدفعنا الى الجهد في الاحتفاظ بعروبة الاقطار التي تتكلم العربية الآن •

ولكننا من الاندلس ازاء فردوس مفقود بكل ما في الكلمة من معنى • فقد كان الاسبان والفرنجة من الوحشية بحيث لم يبقوا من مؤلفات الاندلسيين وأدب الاندلس وتاريخها ما أبقاه المغول على همجيتهم من مآثر الشرق وتراثه ، على أن الروح العربية استأنفت سيرها المعتاد في الشرق بعد ارتداد الفتح المغولي بموجاته العارمة • أما في الاندلس فقد ذهبت هذه الروح العربية الأصيلة الا بقية من تراثها كليا والى الأبد • ولم يبق من تراث الأندلس في التأليف الا نسخ قليلة توزعتها المكتبات في لندن وليدن وباريس ومدريد وسواها ، ولولا أن يد الاستشراق قد امتدت الى هذه المؤلفات والمخطوطات بالطبع والاحياء بدافع الانتقاص من العهد العربي الاسلامي في الاندلس أحيانا وبدافع البحث العلمي النزيه أحياناً أخرى لما عرفنا شيئاً كافياً عن هذا التراث • ومع هذا فقد ظهرت الاندلس بتاريخها الزاهر وأدبها العريق وكأنها العالم الجديد بلاداً خلقها الله منذ الأزل ولكنها ما زالت بحاجة الى متابعة الكشف للدخول بها ثانية الى حيز المعلوم ، وما زالت النواحي الغامضة في تاريخ الأندلس وأدبها تزداد وضوحاً كل ما نشر كتاب أو طبع مخطوط ، وهذا ما جعل الأدب الاندلسي جديداً بالنسبة الينا في حين قد عرفنا الكثير عن آداب العصور التي مرت على الشرق العربي بشتى أقطاره• ولذلك فقد كان التفكير بالكتابة عن أدب الاندلس بالنسبة لي على الاقل أمرا لا يأتي الا بالدرجة الاخيرة وبعد استنفاذ الموضوعات الممكنة عن الادب

العربي في الشرق منذ جاهليته حتى العصر الحديث . لولا وجاهة الأسباب التي ذكرتها آنفاً .

وقد وقفتُ حائراً أمام المصادر ؟ فليس فيما ألفه الأندلسيون كتاب كالاغاني يمكنه أن يقدم للباحث ما يحتاجه عن مظاهر الحياة الاجتماعية وأدلتها المختلفة ، ولكنني اتجهت الى نفح الطيب أول ما اتجهت ، فهو من أغنى الكتب عن الاندلس في هذا الموضوع وان لم يكن يستطيع الوقوف على سبيل المقارنة مع الاغاني في صف واحد ، وبحق ما قاله لي ملاحظ الكتب الظاهرية وأنا أتطلب الكتاب : انك لن تجد ما يغنيك !.

ومع هذا فقد نقلت من نصوص الكتاب ما نقلت ، ثم حاولت تلافي النقص بالمصادر الحديثة التي اعتمدتها في البحث . وهكذا فقد كان الحديث عن المرأة في الاندلس وعن الثراء والعمران وعن المؤسسات الاجتماعية فيها. وقد ظل الفصل الاول في امدادي بالنصوص اللازمة الى نفح الطيب في المقام الأول ، اذ كان « البيان المعرب في أخبار المغرب » خالياً من أي نص في الموضوع ، فلم أستفد منه شيئاً ومثله كتاب الذخيرة لابن بسام على أن كتاب صفة الجزيرة الذي يلخصه « ليفي بروفنسال » عن الروض المعطار للحميري قد أمدني ببعض النصوص عن الثراء والعمران وطبيعة الاندلس ، أما المرأة الاندلسية فلم تستوف حقها في نفح الطيب فما بالك بما هو دونه من مصادر . ولكن شيئاً من المداورة في فهم النصوص يكفي ليدلنا على المصدر الاساسي للبحث عنها .

لقد ألّف ابن حزم كتابه طوق الحمامة في الالفة والالاّف ، ولقد عرفنا ما هي الالفة ، فمن هم هؤلاء الالاّف ؟ أليسوا رجالا ونساء حدثنا المؤلف أن أكثرهم كانوا ممن عرفهم أو اتصلت به معرفتهم من معاصريه أو مواطنيه في الاندلس وهل كان الحب الا تلك الرابطة العاطفية التي تدفع بالجنسين معاً الى الاحتيال في ايجاد تقارب يتكون منه المجتمع ثم تفشل خطتهم أو تتحقق بطريق من الخير للمجتمع أن يكون مشروعاً . ثم أليست المرأة نواة هذا الحب ومحوره في حين أن تصرفاتها في حدود هذه الصفة انما تعبر عن خلقها

الاجتماعي الاصيل وتمثل ذروة التسامي في اظهار خصائصها المميزة لتبدو جميلة ونبيلة في عين من تحب ثم لا تقنع بعد ذلك الا بأن تسم بتأثيرها كل من يحيط بها كائنة ما كانت القرابة والعلاقة بينها وبينهم بنوة أو زواجا أم حباً أم مجرد اعجاب . وهكذا فقد كان لهذا الكتاب القديم في الحب فضل غير يسير في تعريف هذا الجنس من المجتمع الاندلسي وفي حديثي عن المرأة في الاندلس .

على أن الاندلس قد قوّت هذه الوحدة باجتماعها على مذهب فقهي واحد جعلها أقرب الى الوحدة والانسجام الاجتماعي أكثر من أي قطر عربي آخر ، فلعلي أكون على الرغم من هذا الايجاز المفروض قد قمت ببعض ما يجب علي نحو هذا الفردوس المفقود .

رحم الله عهده ولا تكررت علينا أمثال مآسيه !

هذا وان الباحث ليجد صعوبة في تفصيل الحديث عن المجتمع والادب الاندلسي وتحديده بالنسبة لممالك الاندلس وأماراتها وعصورها المختلفة نظراً لقلة المراجع من جهة ولأن وحدة اللغة والتاريخ والعادات من جهة ثانية تفرض نفسها على المجتمع العربي كله وتطبعه بطابع الوحدة والشمول وعدم التجزئة على اختلاف أقطاره وأمصاره ، فبدر والخندق والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت هي تاريخ العروبة كلها بقدر ما هي تاريخ الحجاز والعراق والشام ، ومحمد وأبو بكر وعمر وخالد وسعد والقعقاع هم رجالات هذا الوطن العربي يمنه وحجازه ومشرقه ومغربه وإن أقطار العروبة كلها لتسمي مدارسها وشوارعها بلا تخصيص بأسماء عمر المختار وسعد زغلول وأحمد شوقي وعبد الرحمن الكواكبي والرصافي والزهاوي والشابي وتردد أقوالهم وأشعارهم وتعتبرهم موضع فخرها واعتزازها في تاريخها الحديث وقل مثل ذلك عن موقعة الزلاقة وقصر الحمراء وابن حزم وابن طفيل وابن زيدون والمعتمد بن عباد بالنسبة للاندلس .

هذا هو الأمر الذي يحول دون التحديد المكاني أو الزماني في البحث ويبعد بنا ما أمكن عن التخصيص الى الشمول والتعميم .

محمد سعيد الدغلي

بناء المجتمع الأندلسي

تعالَوا الى الفردوس راقت جداوله ... وماست كأعطاف الحسان خمائله
فغنَّت على رقص النسيم غصونه ... وباحت بنجواها الغداة بلابله
وكان المهى يجرين ملء رياضه ... وتزهو بفرسان البيان محافله
اذا الشاعر استوحاه أوحت حسانه ... وان جاء قصر الملك فالبحر نائله
تحير هل يجري العطاء لسانه ... أم الحسن دون المدح بالحب شاغله
وإن يتغنّى بالنسيب فأيهم ... جواريه ! أم خلاّنه ! أم حلائله
سيشغفنه حباً ويأسرن لبّه ... فيصدح بالتشبيب لله قائله
وهل يصفن حسناء كالبحر طرفها ... وأخرى كعينيها اخضراراً سواحله
أم الشاعر الصدّاح بعد كأمسه ... الى الشرق ما زالت تُشدّ حبائله
وما زال بالصحراء يحلم سادراً ... وبالظبي من ليل الصحارى جدائله
تعالوا الى الفردوس علّ جوابه ... يزيل حجاب الشك حين نسائله
وعلّ الحمى المفقود ينبيء أننا ... ونحن فقدنا في الحمى ما يماثله
سنسترجع الدارين والظلم راغم ... تداعت مبانيه ودكت معاقله

وسيكون الفردوس العربي المفقود في جلاله محققاً لما تتخيل ، وصورة أندى عبقاً وأكثر سعة من صورة وادي الزيتون التي نقلها نفح الطيب عن بعض كبراء الاندلس في كتابه الى بعض اخوانه حيث قال : (كتابي هذا من وادي الزيتون ونحن فيه محتلون ببقعة اكتست من السندس الاخضر وتحلت بأنواع الزهر وتخايلت بأنهار تتخللها ، تحجب أدواحها الشمس لالتفافها وتأذن

للنسيم فيميل من أعطافها • وما شئتم من محاســن تروق وتعجب وأطيار تتجاوب بألحان تلهي وتطرب) [1] •

وكان البعض يرى في الاندلس اقليماً تنتهي اليه فضائل الاقاليم جميعاً• (قال أبو عبيد البكري : الاندلس شامية في طيبها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم مبانيهــا ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها)[2] •

ونحن لا نعجب من صدور مثل هذا الوصف عن أجــدادنا العرب ، فالحبيبة الغالية وهي لا تعدو أن تكون ذرة في تراب الاندلس هي عنــد امرىء القيس ومن جاء بعده :

حجازية الاعطاف رومية الحشى عراقية الارداف شامية المقــل

وما كانت اسبانيا في اقليمها بدعاً بين أقطار الشرق والغرب ولكن ملء عين حبيبها•والاندلس من حيث ملاءمتها للركب العربي الوافد هــي أمنية النفوس ومطمح الانظار ، فالبحر الابيض المتوسط يجمعها بمناخه مع ركيزة الفتح الاولى في الشام ومع ركائزه الثانية في تونس والجزائر ومراكش وهي بعد ذلك من أحسن البلاد مناخاً واعتدال هواء بالنسبة لعربي كان آباؤه قبل جيل يكتوون بشمس الصحراء ولهب الرمال في الجزيرة العربية•وهي كذلك بالنسبة لبربري دعاه الاسلام فلباه الى الجهاد من أواسط الصحراء الكبرى، وفي هذه البلاد (تلاقى منذ القدم الايبريون والسلتيون واللاتين واليونان من العنصر الاوربي والقرطاجنيون واليهود من العنصر الآسيوي الافريقي• وطرأت على اسبانيا أمم جرمانية مثل الفانــدال والقوط ، وهؤلاء القوط

---

١ ــ نفح الطيب جزء واحد ص ٧٤
٢ ــ صفة جزيرة الاندلس للحميري ص ٣

كانوا هم الطبقة السائدة عندما فتحها العرب)[1].

ثم جاء طريف بن مالك فركز راية العرب والاسلام على الرأس المسمى باسمه سنة ٩١ للهجرة ٧١٠ م وانساحت في أرجائها من بعده فيالق طارق وموسى بن نصير بين عامي ٩٢ ــ ٩٥ هـ ٧١١ ــ ٧١٤ م . وتلت هذا الفتح موجات جاء أكبرها بالنسبة للعرب مع بلج بن بشر.ومن فضول القول أن نشير الى أن الفاتحين كانوا من العرب والبربر .

« ولقد اختار العرب السكنى في منطقة ضيقة على الشواطىء الشرقية والجنوبية ثم في سهل قرطبة ، لأن هذه الاماكن كلها تشبه بلادهم في المشرق. أما البربر فنزلوا في الهضاب الوسطى وعلى القسم الجنوبي من الشواطىء الغربية لأن مناخ هذه البلاد وطبيعة أرضها التي تكاد تكون كلها مراعي يشبهان بلادهم في المغرب الاقصى . وقد جرى هذا التوزيع دون اكراه لأن العرب كانوا أقل من البربر [2] .

وقد سمي هؤلاء العرب بالداخلين ، أما نسلهم فهم الاندلسيون.والعرب الداخلون قسمان ، البلديون الذين جاؤوا مع طارق والشاميون الذين جاءوا مع بلج بن بشر .

« ولما كثر الشاميون في قرطبة فرّقهم أبو الخطار الحسام بن ضرار فأنزل أهل جند دمشق في البيرة غرناطة وسماها دمشق وأنزل أهل حمص في اشبيلية وسماها حمص وأهل الاردن في رية وأهل قنسرين في جيان وأهل جند فلسطين في شذونة وسماها فلسطين وأهل مصر في تدمير وسماها مصر»[3] .

وقد عاد العرب في الاندلس الى منازعاتهم كقيسيين ويمانيين وكان

---

١ ــ ظهر الاسلام ص ٢٠
٢ ــ محاضرات في الحضارة العربية لعمر فروخ ص ١٢
٣ ــ نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ و ٢٢٢

البربر أكثر منهم ومنهم عصبيات البتر والبرانس ولم يتنازعوا كما كان يفعل العرب بل كانوا ينازعون العرب مجتمعين • والى جانب هؤلاء الفاتحين من غرب وبربر قام « المولدون من الاسبان الذين اعتنقوا الأسلام وهم كما رأينا مزيج أجناس مختلفة من اليونان والقوط والفرنجة والجلالقة غير أن موقفهم الجديد في الاسلام وفي المجتمع الاندلسي الجديد بعد دخوله لم يكن متأثراً بأجناسهم وان كان قد تأثر الى حد ما بطبقاتهم الاجتماعية ، فسكان الريف تمسكوا بالاسلام اذ حسَّن من أحوالهم على العكس من سكان المدن الذين تقلصت امتيازاتهم بدخول الاسلام•وبالاضافة الىهؤلاءوأولئك ظل الكثير من اليهود على يهوديتهم وكذلك النصارى وكانوا يقلونفيالجنوب ويكثرون في الشمال وأكثرهم من الكاثوليك »[1] •

والى جوار هذا المجتمع الاندلسي قام العلوج وهم الفرنجة الذين كانوا يعيشون في اسبانيا وخارج نطاق الحكم الاسلامي وكان مؤرخو الاندلس يسمونهم الروم أيضا •

ومن البدهي أن التزاوج قد وقع على نطاق واسع بين العناصر المختلفة في الاندلس وكانت البوادر الاولى لهذا التقارب قد حدثت في المغرب وبين الوافدين اليه من العرب الفاتحين • ويرى الاستاذ أحمد أمين في كتابه ظهر الاسلام أن الزواج كان أمراً لا بد منه بالنسبة الى جيش لميغامر باصطحاب نسائه معه نظراً لبعد الشقة وصعوبة المغامرة ، وأزيد عليه أن تسامح الاسلام في زواج المسلم من نساء أهل الكتاب وطبيعة الزمن التي كانت تبيح التسري والاسترقاق قد جعلت من هذا التزاوج أمراً طبيعياً لا سيما والجيش الفاتح أمام لون من الحسن جديد يغري بالوله بنعومته ويدفع الى طلبالاستمتاع كان من بعدها في الغزوات المتلاحقة معين لا ينضب من السبايا (وفي أيام بطرافته • وقد بدأ عبد العزيز بن موسى بن نصير فتزوج أرملة لوذريق ثم

---

١ ــ الحضارة العربية لعمر فروخ

المنصور بن أبي عامر غالى الناس فيما يجهّزون به بناتهم من الثياب والحلي والدروع وذلك لرخص أثمان بنات الروم فكان الناس يرغّبون في بناتهم بما يجهّزوهنّ به مما ذكرنا ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة ، وبلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساوِ أكثر من عشرين ديناراً)[1]٠

وقد حمل هذا المجتمع المزيج بين طياته منذ البدء صعوبة تكوينه وحراجة استمراره ، فقد استعصت منطقة الجلالقة في الشمال على الفتح ، ولا أبرّئ الفاتحين الاولين من تبعة التواني في العمل على اخضاعها وصهرها ببوتقة المجتمع الجديد ٠

وعلى الرغم من أن بواتيه التي تعد نهاية المد في توسع الاسلام نحو أوربه في زمن هشام بن عبد الملك انما تقع في فرنسا لا في اسبانيا فان هذه المنطقة التي تشغلها الجبال وتقع فيها البيرنه كحدود تفصل حاليا بين فرنسا واسبانيا كانت وقتها نقطة الانطلاق لخطر داهم ما زال يتهدد المجتمع الاندلسي الناشىء حتى قضى عليه مؤخرا ٠

وان تشكل السكان على هذا النحو لم يسبق له مثيل في الشرق العربي الذي سبقت عهد الفتح فيه موجات عربية متتابعة ، ولئن كان سكان الشرق في كثرتهم ابان الفتح من المسيحيين فقد كان في عروبة هؤلاء ما يحملهم غير مجبرين على الانضواء في موكب التحرير والانصهار في البوتقة العربية المسلمة على العكس مما جرى في الاندلس حيث كان بعد المسافة يدفع بالعرب الاقحاح أنفسهم الى التنكر لواجباتهم تجاه العروبة المغتربة والاسلام الفتي ٠ على أن سماحة الاسلام وطبيعة الروح التي كان يتحلى بها الفاتحون الاولون كانتا مما أعان على غزو القلوب كلما تمنعت الحصون ٠ ويضاف الى هذا كله الضمانة التي وجدها سكان الارياف في عدالة الاسلام

---

١ ــ ظهر الاسلام لاحمد امين عن المعجب في أخبار المغرب ص ١٢٨

ضد طغيان الطبقة الحاكمة من القوط ، ولأمر ما خان يوليان وطنه • واذا كانت كل ولادة يصحبها ألم كما يقول نيتشه فقد كانت ولادة المجتمع الاندلسي بمكان من صعوبة المخاض أصبحت معه حياة هذا الكائن الجديد عرضة للانتكاس في كل لحظة وبالتالي فقد كانت هذه الحياةمدينة باستمرارها الى جهود المغامرين من أمثال عبد الرحمن الداخل والمنصور ابن أبي عامر والى كفاح المنقذين من بني عباد في اشبيلية ومن بني الاحمر في غرناطة بل والى استجابات الحمية من مسلمي البربر مرابطيهم وموحديهم ليكون في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م انزلاق الخطر الغربي المتكالب عن بقايا الاندلس العربية ولو الى حين •

بيد أن المغامرة في الوقت نفسه انما تحمل في طياتها من بذور الخطر بقدر ما تحمله في بعض وجوهها من بوادر الانقاذ وكم جنت على وحدة الاندلس وكيان مجتمعها مطامع أفاق طموح •

* * *

طبقات المجتمع الأندلسي

اذا كان المجتمع الاندلسي كما رأينا يتألف من العرب والبربر والمولدين وكان الى جانبهم أهل الذمة والى جوارهم العلوج فهل تصلح هذه العناصر لأن تكون معياراً للتمييز الطبقي بين فئات المواطنين ؟!

ليس غريبا مثل هذا الافتراض لا سيما وقد كان أهل المشرق ينقسمون الى طبقات ثلاث : العرب والموالي وأهل الذمة ، ثم تعدد هذا التقسيم في العهد العباسي بحيث كان بنو هاشم وحدهم في ذروة الطبقات ومن دونهم سائر الناس من تجّار وزرّاع وأصحاب حرف ، ولكن الواقع أن العرب في الاندلس كانوا من القلة والتنازع فيما بينهم بحيث لا يستطيعون التميّز على البربر وكان العنصران معاً من تراخي العصبية وانحلالها بحيث لا يفخرون على المولدين ونحن نعلم أن العصبية في المجتمعات المتحضرة نسبياً انما تنتقل من عصبية العنصر والقبيلة الى عصبية الاقليم والبلد . ولقد هدأت ثائرة المولدين بدورهم فلم يقعوا مع العرب والبربر في جدال طبقي كالذي حدث بين العرب والموالي في المشرق وان كان المولّدون قد ثاروا مرارا كما فعل عمر ابن حفصون ثأراً وانتصارا لقوميتهم المغلوبة على أمرها في الاندلس.

أما اليهود وأهل الذمة من سكان الارياف فقد رأوا من عدالة الفاتحين ما أراحهم من تعنت القوط ولم يمتازوا عن سواهم من أهل الاندلس بأكثر

من الابتعاد عن الازياء التي تحمل طابع الدين لا سيما وقد تخلى عنها المسلمون أنفسهم في الاندلس • فلنصرف النظر اذن عن أن نأخذ بنظام التقسيم الطبقي أو العنصري في الاندلس •

وفي معرض البحث عن تقسيم طبقي آخر نجدنا غير مستطيعين أن نظفر بحدود قاطعة للتفريق بين فئة وأخرى ولا بتعريفات حاسمة تستطيع أن تسم فئة من الناس بأنها طبقة ممتازة أو متأخرة ولكننا نستشعر بينهم من تلقاء أنفسنا ببعض الاحترام نحو أفراد الأسر الحاكمة كما نستطيع أن نلمس بسمات الحظ وهي تشرق الفئات القضاة والفقهاء وأهل الادب ثم لا نستشعر بشيء من الضعة نحو سائر أفراد الشعب من تجار وصناع وزرّاع اذ كان لهؤلاء من قوة السطوة ووفرة العدد ما كان يحمل الخلفاء والامراء على استرضائهم وكسب ودهم بشتى الطرق لا سيما وأن الحكم في الاندلس كان أقرب الى حكم الديموقراطية والشورى منه الى حكم الاستبداد •

لقد عجزنا اذن عن ايجاد التقسيم الطبقي الفاصل في مجتمع الاندلس في العصر الذي كانت فيه المجتمعات الاوربية والشرقية الاخرى تتميز الى عناصر وطبقات • فهل يستطيع شعر الاندلس وأدبها أن يضعانا أمام الحدود الفاصلة لمجتمع الاندلس ؟!•

أقول انه لعل من حسن الحظ أن يكون الادب بشعره ونثره أعلى من التمسح الطبقي بهذه الفئة أو تلك فللأدب شموله وأرستقراطيته الجارفة وتساميه عن الافصاح عن شخصية قائله والتعبير عن مستواه الصحيح اذا لم يكن على جانب من الوجاهة والجاه ، فلكل انسان أن يفخر بشجاعته ويمتدح ذكاءه ولكل انسان أن يكذب بما يشاء في التبجح بأصله وكرمه ووفائه ونجدته وأن ينظم في ذلك رقيق الشعر وأعذبه • وما عُرفت حبيبة منذ عهد امرىء القيس الا وهي نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل ، بضة المتجرد بعيدة مهوى القرط ترفل بالدمقس وبالحرير وقد عبق بها العنبر والمسك :

وأعجبها من عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهمها فليست لشيء آخر الليل تسهر

ولست أتخيل حتى بين طبقات العمال من يمكن أن يتغزل بنشيد هذا ترجمته :

على وجنتيك يا حبيبتي ذرات من دخان المعمل
وفي يديك الخشنتين دمال العمل

ومع ذلك فأنت أحب الي من ناعمة بضة المتجرد من ربات القصور

وأندى عرقا بعد الجهد المتواصل
من أريج العطور في أردان المترفات

فمن العبث الضائع اذن أن نلتمس الفوارق والامتيازات الاجتماعية والطبقية فيما بين أيدينا من آثار الاندلسيين الادبية فقد قل الشعر الذي تستطيع الاستدلال منه على شخصية قائلة كقول الاخفش الحداد :

مطارق الشوق منها في الحشى أثر يطرقن سندان قلب حشوه الفكر
ونار كور الهوى في القلب موقدة ومبرد الحب لا يبقي ولا يذر

والمعاني بعد ذلك شائعة مبتذلة يستطيع أن يتصيدها كل من انتبه اليها ، والا فهل كان لسان الدين بن الخطيب منجماً أو طبيباً بين معاصريه حين يقول :

إني وان كنت ذا اعتدال رثّ القوى بيِّن الهزال
في عارض التيس لي شفاء فكيف في عارض الغزال

وما كان ابن زيدون قصاصا ولا مفسراً حتى ولو هو أنشد :

رأيناك في أعلى المصلى كأنما		تطلع من محراب داوود يوسف

بل لقد كان ابن زيدون يشرب الخمر في الوقت الذي يقول فيه في مديح ابن جهور :

أباح حمى الخمر الخبيثة حائطا		حمى الدين من أن يستباح له حد

وقل مثل هذا عن أحمد شوقي بين شعرائنا المعاصرين • ولكن هذا القياس لا يمنع أن بعض الشعراء قد عبّروا عن حقيقتم في بعض شعرهم كما قال ابن قزمان الكاتب :

يمسك الفارس رمحا بيده		وأنا أمسك فيها قصبة
فكلانا بطل في حربه		ان الاقلام رماح الكتبة

ولكن مثل هذا الشعر الصادق النادر لا يمكن أن ينهض دليلا كافياً على امكان استشفاف التباين الطبقي من خلال الادب شعره ونثره ، بل نجدنا مضطرين الى أن تنظر الى الادب الاندلسي بمجموعه كوحدة تعبر بمجموعها عن أحوال المجتمع •

وبنفس الاستحالة التي نراها في دراسة الأدب الاندلسي مصنفاً بحسب الطبقات فنحن لا نستطيع ارضاء النزعات الاقليمية والزمنية الدقيقة في تتبع الادب وتطوراته في شتى امارات الاندلس،ولن نستطيع كذلك أن نقسم الادب الاندلسي تقسيماً كمياً صحيحاً في حدود العهود والدول وملوكها في الوقت ذاته !!•

اننا نكون فيما لو فعلنا ذلك كمن يؤرخ لرجل معاصر سافر من دمشق في عام ١٩٢٢ يوم كانت دمشق وحدها دولة في أول عهد الانتداب البغيض الى مدينة حلب التي كانت في ذلك العهد دولة ثانية • ثم ان هذا الرجل نفسه حج الى بيت الله الحرام ثم قضى نحبه في بعض أسفاره الى حمص بينما خلّف

ولداً يعيش بيننا الآن في دمشق •

ان مثل هذا المؤرخ لن يخرج في ترجمته لهذا الرجل بعد طول البحث والاستقصاء بأنفع من النتيجة التالية :

« لقد كان رحمه الله عربي المولد والنشأة والوفاة » •

نرانا مضطرين بعد ذلك كله أن ننظر الى التجاوب بين المجتمع الاندلسي وأدبه نظرة كلية لا تتجزأ لأن اللغة والدين والثقافة العربية الاسلامية كانت قاسماً مشتركا بين دول القطر الاندلسي كلهـا وفي مختلـف عصوره برغم التطورات العارضة والفوارق الطفيفة ، فلن نجد في المجتمع الاندلسي بعـد طول البحث أكثر من حمم ثائرة من الشرق قد استقرت في رحاب الغـرب ولن نجد في أدبهم الحافل أبلغ من سؤال حائر انطلق من هواجس المعلوم ليبحث عن ذاتيته في غياهب المجهول وهل الحياة كلها الا فكرة سرعان مـا تلتمع حتى يصيح الباحث من مفاجأتها مـذهولا يصيح مـع أرخميدس : وجدتها ! وجدتها ! ثم قد يضطر الى البحث عنها من جديد • وهكذا فقد كان شأن القادمين من بلاد المشرق :

مواكب دعاها داعي الحمية فلبت نداء الفداء دونما اكراه ، حتـى اذا أصبح العدو من أمامها والبحر من ورائها وكانت أضيع من الايتام في مأدبة اللئام لم تجد الا أن تدافع عن بقائها بتوطيدسلطانهـا في الجزيرة الخضراء ثم تتلوها الافواج المتتابعة فتمد الاندلس برفـد دائم مـن دمـاء العرب والمؤمنين من البربر ولتستعيد هذه المجموعة توازنها على يد مخاطر أو منقذ كلما همت أن تميد بها أركان موطنها الجديد •

أثر المغامرة في حياة الأندلسيين

لقد كان المجتمع الاندلسي بأفراده مغامرا مقداما يربطه التاريخ الوثيق بعراقة الشرق ويفتح الواقع عيونه على طبيعة الغرب ومجاهله ومن هنا حفل أدب الاندلس بشعر المغامرة وأقوال المغامرين ، فقال عبد الرحمن الداخل رداً على قرشي استقل عطاءه :

شتان من قام ذا امتعاض	منتضي الشفرتين نصلا
فجاب قفرا وشق بحرا	مساميا لجة ومحلا
دبّر ملكاً وشاد عزاً	ومنبرا للخطاب فصلا
ثم دعا أهله اليه	حيث انتأوا أن هلم أهلا

وقال الحكم الربضي بعد أن أخمد ثورة أهل الربض :

رأبت صدوع الارض بالسيف راقماً	وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل بها الآن ثغرة	أبادرها مستنضي العزم دارعا
فهاك بلادي انني قد تركتها	مهادا ولم أترك عليها منازعا

وقال الوزير أحمد بن عباس بالمرية :

لي نفسي لا ترتضي الدهر عمرا	وجميع الانام طراً عبيدا
لو ترقت فوق السماك محلا	لم تزل تبتغي هناك صعودا
أنا من تعلمون شيدت مجدي	في مكاني ما بين قومي وليدا

وان مجتمعاً فيه مثل هذا الطموح لا بد وأن يفسح في صدره مجالا للمؤامرات والمكائد وأن يعبّد طريق التقدم والارتقاء على أهواله ومكارهه بوجه الطامحين من شعراء ووزراء حتى كان الطريق الذي سلكه ابن زيدون الى الوزارة والحب مثالا سلكه واحتذاه أكثر النابهين على خلاف في بعض التفاصيل ، فقد كان ابن زيدون كما نختصر هذا الموجز من حياته عن كتاب

ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف وكما (يصفه أبو حيان مؤرخ الاندلس ، مجبولاً في صباه على الجهالة عاطلا عن كل خلة تدل على فضله ثم جذبته الى فلكها الولادة بنت المستكفي وكان لا يزال في ميعة الشباب فلم تلبث ان وقعت في شباك حبه وبادلته هياماً بهيام فكان لقاء .

واذا كانت أخت الولادة لما واعدت وضاح اليمن في المشرق :

قالت لقد أعييتنا حجـــة	فأت اذا ما هجـع السامر
واسقط علينا كسقوط الندى	ليلة لا ناهٍ ولا زاجـــر

فان الولادة في الاندلس قد تجاوزت دافع التمنع في الانثى وتجشمت بنفسها مشقة الحضور بعد ما كتبت الى صاحبها ابن زيدون :

ترقب اذا جنّ الظلام زيارتي	فانــي رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا	وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

ثم تتابع بينهما اللقاء في حدائق قرطبة حتى تنكرت له وتمنعت عليه واستبدلت به الوزير أبا عامر بن عبدوس فتلاحيا في حبها زمنا ولم يلبث ابن عبدوس أن نسب الى ابن زيدون أنه يحاول القيام بثورة على السلطـان فوضعت بيديه الاغلال وقدم الى المحاكمة وكتب الشاعر من سجنه قصائد بديعة يناشد فيها الوزير أبا الحزم بن جهور أن يعفو عنه دونما جدوى ففر الشاعر من سجنه ليلة عيدالاضحى وظل في ضواحي قرطبة يضرع الى أبي الحزم أن يغفر له ما قدم فعفا عنه أخيرا . وربما كان لابنه أبي الوليدالفضل الاول في ذلك اذ كان ابن زيدون صديقه فلما توفي أبو الحزم عينه أبو الوليد للنظر على أهل الذمة ، ثم سفر بينه وبين ملوك الطوائف ثم رحل عنه الـى بلاط بني عباد فتلقاه المعتضد في وزرائه وأعيان بلده وألقى اليه بمقاليـد وزارته وكأنه رأى في تحوله اليه تحوّل قرطبة الى سلطانه وما زال في المكان الرفيع منه حتى توفي المعتضد سنة ٤٦١ هجرية وخلفه ابنــه المعتمد فحاول حسّاده أن يبعدوه عنه ولكنه انتصر عليهم اذ رفعه المعتمد الى الذروة من

مشورته ووزارته ولما حاول غزو قرطبة مسقط رأسه كان جل" اعتماده عليه، فبينما هو معه في قرطبة ثارت العامة على اليهود في اشبيلية فأشار المنافسون لابن زيدون وخاصة ابن عامر وابن مرتين على المعتمد أن يرسل ابن زيدون لتهدئة الثورة ليظهر فشله وكانت السن قد تقدمت به ولم يكد يصل اشبيلية حتى ثقل عليه مرضه فلبى نداء ربه عام ٤٦٣ للهجرة .

وقد ابتلي الامام ابن حزم بدوره بالاعتقال والتشريد هو وأبوه حينما اتهما في عهد المنصور بالولاء للأمويين فقال في طوق الحمامة : « انّا امتحنا بالاعتقال والتعذيب والاغرام القادح والاستتار وأجلينا عن منازلنا وتقلبت بي الامور الى الخروج عن قرطبة »[1] .

وكان في طغيان الطموح الشخصي بلاء الاندلس حتى اضطربت شؤون المجتمع وتفككت الروابط السياسية بين مدنه بقيام الطامحين من ملوك الطوائف حتى بدا تغير الدول فيها وكأنه ضرب من الجبر ، وحتى أصبح المتأمل في شؤون الاندلس من شعرائها ومفكريها مضطرا الى الاذعان والتسليم والقول مع اليحصبي :

ليس للمرء اختيار في الذي ... يتمنى من حراك وسكون
انما الامر لرب واحد ... ان يشأ قال له كن فيكون

أو هو مضطر الى الثورة على الملوك المتقاعسين عن نصرة الاسلام والمتعاونين مع الاجنبي الدخيل متمثلا بقول أبي القاسم خلف بن فرج الالبيري حيث يقول منددا بأمراء عصره :

ناد الملوك وقل لهم ... ماذا الذي أحدثتموا
أسلمتم الاسلام في ... أسر العدا وقعدتموا
وجب القيام عليكموا ... اذ بالنصارى قمتموا
لا تنكروا شق العصا ... فعصا النبي شققتموا

ولعل لهذا الشاعر الثائر عذره حينما ألف كتاباً سماه شفاء الامراض في انتهاك الاعراض وتناول فيه ما كان يدعيه أهل عصره من خصال لم تكن

١ ـ طوق الحمامة ص ١١٠ .

فيهم ووضعهم موضعهم الصحيح [1] . بيد أن حسنة واحدة نشأت عن تعدد الدويلات والامارات هي انتشار الادب وازدهاره بازدياد القصور والاسر الحاكمة فقد كان ملوكها يتنافسون في استجلاب الشعراء والعناية بالادب ولولا العطاء لما نظم مدح أو تفرغ شاعر لشعر .

ومن ناحية ثانية فقد كان لهذا الافراط في المغامرة والطموح وارضاء النزق الشخصي أثره السيء الذي نشأ عنه تفكك الوحدة السياسية وسقوط الدول والامارات الاندلسية واحدة بعد واحدة فكثرت في أشعار الاندلسيين مراثي الدول والحث على الفرار من الهوان والحنين الى الحمى المسلوب ، وليست قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الاندلس بالقصيدة الخافية : (ولقد توقع أبو حيان سقوط الاندلس لما رأى سقوط بيشتر سنة ٤٥٦هـ .

وقال شاعرهم لما سقطت طليطلة :

يا أهل أندلس شدوا رحالكموا	فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى	سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لم يأمن بوائقه	كيف الحياة مع الحيات في سفط [2]

واستشهد القاضي أبو المطرف بن عميرة في كتاب بعث به الى الشيخ أبي جعفر بن أمية حين حل الرزء ببلنسية بهذا البيت :

تحن الى نجد وهيهات حرمت	صروف الليالي أن تحن الى نجد

وكتب رحمه الله :

زدنا على النائين عن أوطانهم	وان اشتركنا في الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استبقوا لها	من بعد أن شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا	مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا	لعدونا أفيستقيم لها الهوى ! [3]

وان في بيتيه الاخيرين صورة لولا حال الاندلس ما ظفر بمثل صدقها شعر ولا نثر .

---

١ ـ تاريخ الفكر
٢ ـ ظهر الاسلام لاحمد امين ص ٤٤
٣ ـ نفح الطيب صفحة ٢٨٩

دين المجتمع الأندلسي

قد يرى البعض في أوطانهم الصغيرة حجرا تتمكن ارادة الرامي من الاطاحة به بعيدا الى ديار الغرب ليكون في عاداته وتقاليده قطعة من فرنسا أو ايطاليا • وقد يصل الطموح ببعضهم الآخر الى حد التصور بامكانية ابعاد هذا الحجر وإحكام قذفه بحيث يكون مرفأ بالقرب من ليفربول أو ولاية امريكية رقمها ثلاثة وأربعون ويمكنها أن تقبع سعيدة على شاطىء ميامي أو فلوريدا ، ولكن الحقيقة التي تصدم هؤلاء الخياليين أن الخضوع الى بعض الظروف ردحاً من الزمن والتأثر ببعض العادات الطارئة أضعف من أن يقطعا صلات القربى وروابط الدم أو أن يحد"ا من تراث الاجيال فيفصلا بين مستقبل الزمن وماضيه •

ولكن الحقيقة بالنسبة للاندلس أن هذا الحجر الاجتماعي المفترض قد يبدو لأول وهلة وقد استقر في مصافه المكاني بعيداً عن منابت العروبة والاسلام ثم استسلم قابعاً بين مجتمعات الغرب وبعيدا عن الشرق وخاضعا لمقتضيات الاقليم ومتطلبات الحياة الجديدة وحدها • الا أن أصالة الوراثة تحول بميسمها الطابع دائما دون الخضوع نهائيا الى مظاهر المحيط الجديد ومتطلباتها العابرة ويبدو هذا الامر جلياً في حياة المجتمع الاندلسي بالنسبة الى ظاهرتين بارزتين : الدين واللغة ، فلقد أسلمت الاندلس وبصورة أدق لقد خفقت في أرجائها راية الاسلام ، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل جاوزت

الاندلس في تعصبها للدين الجديد واستمساكها بتعاليمه اخواتها من دول الشرق المسلم . فجاء في الجزء الاول من نفح الطيب : ـ وأما قواعد أهل الاندلس في دياناتهم فانها تختلف بحسب الاوقات والنظر الى السلاطين ولكن الاغلب اقامة الحدود وانكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وانكاره ان تهاون فيه أصحاب السلطان . وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم وهذا كثير في أخبارهم . وأما الرجم بالحجر (المظاهرات) للقضاة ولولاة الاعمال اذا لم يعدلوا فكل يوم ـ . والاكثر غرابة من هذا تعلق الاندلسيين بمذاهب أهل النقل « وأعلم أن أهل الاندلس كانوا في القديم على مذهب الاوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انتقلت الفتوى الى مالك بن أنس وأهل المدينة فانتشر علم مالك في ولاية قرطبة والاندلس جميعا بل والمغرب وذلك برأي الحكم واختياره . واختلفوا في السبب المقتضي لذلك فذهب الجمهور الى أن سببه رحلة علماء الاندلس الى المدينة فلما رجعوا الى الاندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره وقيل أن الامام مالكا سأل بعض الاندلسيين عن سيرة ملك الاندلس فوصفت له سيرته فأعجبت مالكا لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن بمرضية فقال الامام مالك : نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم فنميت المسألة الى ملك الاندلس مع ما علم من جلالة مالك ودينه فحمل الناس على مذهبه وترك مذهب الاوزاعي »[1] ـ (حتى أنهم كانوا في قرطبة لا يولون حاكماً الا بشرط أن لا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم)[2] .

وهذه الاسباب في انتقال المذهب المالكي الى الاندلس قد تفسر انتقاله ولكنها لا تكفي لتفسير شموله واستمراره ، بل أن السبب الذي نستطيع أن نفسر به دوام المذهب المالكي في الاندلس وازدهاره بالاضافة الى الظروف

---

١ ـ نفح الطيب ج ٤ ص ٢١٤ و ٢١٥
٢ ـ المصدر نفسه ص ٢٠٢

التي رافقت اقتقاله انما يكمن في صلة الوراثة التي دمغت كـلا من الشام والمغرب بطابع المحافظة والتقليد ثم ثلث بربيبتهما الاندلس في حين أبعدتهما بالوقت نفسه عن الاخذ بمذهب أهل الرأي الذي تقبلته نفوس أهل العراق. وأتابع رأيي فأقول أن هذه الروح المحافظة الموروثة هي التي جعلت مـن التشيع في شطحاته وتأويلاته مذهبا يطرحه أهل المغرب ثم لا يفكر به أهل الاندلس .

أما الاعتزال فقد كان أبعد من أن يدين به أهل الاندلس وان كان لسان الدين بن الخطيب قد عدد في نفح الطيب عددا من أهل الاعتزال الذيـن قال فيهـم :

والحب حركهم لكل جـدال   والحب أقحمهم على الاهوال
والحب أنشأ فيهم عصبيـة   بالقيل أضرم نارهـا والقـال

وشتان ما بين مجتمع الاندلس في مزاجه المحافظ وبين ما في الاعتزال من قال وقيل فقد تعود الاندلسيون أن يمسكوا ألسنتهم ويجادلوا بسيوفهم، وهل أدراك ما كانوا يفعلونـه بكتب الفلاسفة وبالفلاسفة أحيانا : جاء في الجزء الاول من نفح الطيب (وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة فانهم كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره الى السلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة . وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامـر الى قلوبهم أول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن)[1].

أما علوم النقل من قراءة وفقه وحديث وأصول ونحو فحدث عنهـا ولا حرج على أن قصب السبق فيها كان للمشرقيين دائما .

---

١ ــ نفح الطيب جزء ١ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٧ .

واذا كنا نلمس انتشار المذهب الظاهري في الاندلس على يد امامه ابن حزم فإننا لا نستطيع القول بانحسار المذهب المالكي عنها ذلك أن المذهبين انما يستقيان معاً من معين النقل على أن الظاهرية في الاصل مذهب من مذاهب التفسير قبل أن تكون مذهباً من مذاهب الفقه ، وهكذا فإن المجتمع الاندلسي لم يكتف في تدينه بمذهب فقهي وسط كالمذهب الشافعي السائد في مصر والمنتشر في بلاد الشام وانما طبق تعاليم الاسلام بالنص كما أخذت من القرآن والحديث وجرى العمل عليها من أهل المدينة ثم لم يجمع الى المالكية مذهباً آخر . ومن هنا فقد انعدمت المشاحنات بين الفقهاء الا ما كان بين ابن حزم والمناوئين لمذهبه وانعدمت تبعا لذلك الآثار الفقهية والأدبية التي تنتج عن مثل هذا الجدال والتي قد يؤلفها البعض دفاعا عن مذاهبهم فاستفادت من هذه الوحدة المذهبية فئة الفقهاء التي كانت تتمتع بمركز أدبي ممتاز والتي كان يتقرب اليها الخلفاء والامراء بتحريم الخمر واجتناب اللهو والتشدد فيهما (فلما خرج عبد الرحمن الداخل من البحر أول قدومه على الاندلس أتوه بخمر فقال اني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه فعرفوا بذلك قدره ، ثم أهديت اليه جارية جميلة فنظر اليها وقال : ان هذه من القلب والعين بمكان وان أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها وان اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي ولا حاجة لي بها الآن وردها على صاحبها)[1] .

(في حين همّ الحكم المستنصر بقطع شجرة العنب من الاندلس لما كرّه له العلماء شرب الخمر فقيل له انها تعصر من سواها فأمسك عن ذلك)[2] . ولما أمر ابن جهور بكسر دنان الخمر أنشد في مدحه ابن زيدون:

أباح حمى الخمر الخبيثة حائطاً	حمى الدين من أن يستباح له خد
فطوّق باستئصالها القطر منة	يكاد يؤدي شكرها الحجر الصلد

---

١ ــ نفح الطيب ج ٤ ص ٤٢

٢ ــ نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠١

وكان الاندلسيون يعبّرون عن اعجابهم الادبي بالفقهاء بأن كانوا يسمون الامير العظيم منهم الذي يريدون التنويه به بالفقيه . وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات)[1] .

وقد عرف الفقيه مكانه فتدلل « فألزم يحيى بن يحيى الليثي الخليفة الداخل شهرين متتابعين في كفارة كان يمكن أن تؤدى عنه باعتاق رقبة »[2] . (وأضرب أبو عمر بن المكي الاشبيلي شهرين عن الفتوى احتجاجا على المنصور بن أبي عامر لقتله عبد الملك بن المنذر البلوطي ظلماً)[3] .

ولا عجب بعد هذا كله اذا رأينا شعراء الاندلس يستمدون معانيهم أحياناً من أحكام الفقه وتعاليمه كقول بعض أهل الجزيرة :

ألحاظكم تجرحنا في الحشى ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

وقول ابن زيدون متغزلاً :

بل ما عليك وقد محضت لك الهوى في أن أفوز بحظوة المسواك

بيد ان الفقهاء لم يسلموا على ما كانوا يتمتعون به من حب واعجاب من (فولتير) أندلسي ينتقدهم قائلا في شخص ابن خفاجة :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة في أخذ مال مساجد وكنائس

وقد سمعنا المعري وهو يقول عن زملائهم في المشرق :

رويدك قد خدعت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

---

١ ــ المصدر السابق
٢ ــ ظهر الاسلام ص ٦٦
٣ ــ المصدر السابق

يحرّم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء

على أن الذي يلفت النظر أنه لم يقم في الاندلس من يستغل الدين أو يتاجر بالعقائد :

كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالاحساء

اذ أن الاندلس قد خلت من أية دعوة خارجية أو اباحية أو باطنية .

لقد بالغ الاندلسيون في الدين الى درجة التقليد ولكنهم لم يستغلوا تعصبهم الا" نادراً للايقاع بالعناصر غير المسلمة في بلادهم نظراً لوصية الدين فيهم الامر الذي حدا بالكثير من الذميين الى الارتماء تلقائيا في أحضان الاسلام .

لغة الأندلسيين
نظرية ربيرا

جاء في الصفحة ١٤٢ من كتاب تاريخ الفكر الاندلسي لمؤلفه الاسباني أنخل غنثالث وترجمة الدكتور حسين مؤنس في عرض نظرية ربيرا ما يلي :

« أصبح من الواضح نتيجة للابحاث التي قام بها الاستاذ خليان ربيرا أن أهل الاندلس الاسلامي كانوا يستعملون العربية الفصيحة كلغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما اليها . أما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية وليس ذلك بغريب لأننا اذا ذكرنا أن عدد العرب الخلص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلا جدا تبينا أننا لا نستطيع اعتبار الاندلسيين المسلمين شاميين أو مشارقة ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع بعد الفتح . ولنضف الى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل في ذلك الحين اللاتينية كلغة وأن أناسها كانوا يتحدثون الى جانبها بلهجات Romances مختلفة مشتقة من اللاتينية . وكان هذا الازدواج في اللغة هو الاصل في نشوء طراز شعري مخطط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية ولقد أزدرى أهل الادب الفصيح والمعنيون بأمره هذا الطراز الجديد بينما مضى الناس جميعا يتناقلون مقطعاته سرا فيما بينهم . وذاع أمره داخل البيوت وفي أوساط العوام . وما زال أمره يعظم والاقبال عليه يشتد حتى أصبح في يوم من الايام لونا من الادب . وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الادب الشعبي صورتين احداهما الزجل والثانية الموشحة »[1] .

هذه هي نظرية ريبرا كما أوردها غنثالث وقد بقي على مؤلفها أن يسترسل في نظريته الحالمة فيبين لنا لماذا كان الناس يتناقلون الموشحات في بادىء الامر سرا فهل كانت هناك محاكم للتفتيش ؟ وماذا كانت عقوبة من يقبض عليه متلبسا بجريمة التوشيح آنذاك ؟ هل كانت هي الاحراق أم الاعـدام بالمقصلة !. الحقيقة أن صاحب النظرية قد أخطأ في عرض نظريته بشقيها : ثنائية اللغة وأصل الموشحات ان لم يكن قد قصد الى هذا الخطأ قصدا .

فالموشحات انما كانت في أصلها خروجاً على القافية وتطويرا للاوزان المعروفة قبلها ولم يهدف واضعوها الى الانسلاخ عن العربية الفصيحـــة جملة وإن حدث ذلك فيما بعد نظرا لفساد الاذواق ، وكلامه عن ثنائية اللغة شيء أكثر تهالكاً أمام النقد الصحيح فنحن نقر بوقوع اللحن في المشرق قبل المغرب ولا ننتظر مع ريبرا جيلين ولا ثلاثة لدخول اللحن الى لغة الاندلسيين بل نعترف بدخول اللحن الى الاندلس مع العرب الفاتحين أنفسهم من جيوش الوليد بن عبد الملك اذ كان الوليد نفسه لحّانة فيما يذكرون ، ونوافق على أن اللغة الفصحى قبل العامية قد عمدت الى تعريب بعض الاسماء التي كان يطلقها السكان المحليون على بعض المسميات .

أما الاحتجاج بقلة العرب الفاتحين لاثبات أن المسلمين الاندلسيين لا يمكن اعتبارهم ساميين أو مشارقة أو عربا بعد جيلهم الثالث أو الرابع في الاندلس والقول أنهم كانوا يعانون ازدواجا لغويا يتكلمون معه باللغة العامية التي هي لهجة من اللاتينية الدارجة فتلك خدعة من خدع الاستشراق ونفحة من أكاذيبه .

أجل لقد فات صاحب النظرية أن الندرة أساس القيمة كما يقول علماء الاقتصاد وأن العرب الفاتحين كانوا أقلية كذلك في مصـر والمغرب وكانت الشام والعراق تحت النفوذين الرومي والفارسي قبل الفتح بل ظلت الدواوين تكتب بالفارسية في العراق وبالرومية في الشام فترة بعد الاسلام ، ومـع هذا فنحن الآن نتكلم العربية كلنا من شواطىء المحيط الاطلسي الى شواطىء

البحر الاحمر والمحيط الهندي ومن المتوسط حتى فارس وقد اقتبست اللغة العربية الفصحى فيضا من كلمات الفرس والروم واليونان وغيرهم وتأثرت عامية كل قطر من أقطارنا بلغة الحكم البائد عنها متضمنة الكثير من كلماته وتعابيره ولكن هذا لم يمنعنا حاليا من التفاهم على تقادم الزمن وبعد المسافة وسعة الارجاء . ذلك أن اللهجات العامية عربية شاردة لا أجنبية واردة وهي لا تحتاج لتكون عربية لا غبار عليها الا لتقويم الانحراف واخضاعها لمتطلبات الاعراب .

ولقد كان آباؤنا المعاصرون يتكلمون في عاميتهم بعدد من الكلمات الفرنسية ويكثرون من ترديد هذه الكلمات (أنتيكا) Antique فنتازية Fantaisie موضة Mode دنس Danse في الوقت الذي كانوا يلعنون فيه فرنسا مئة مرة في اليوم الواحد ومع هذا فنحن لا نستطيع أن نقول مع ريبرا أن السوريين كانوا يتكلمون في عهد الانتداب البائد لهجة من الفرنسية الدارجة ثم نعمم مثل هذا الحكم على مصر والعراق وسواهما من أقطار العروبة كما توسع ريبرا في نظريته وها هو العالم بأسره يستعمل في أحاديثه عن الرياضة الكلمات التي يستعملها الانكليز أنفسهم مثل فوتبول وباسكتبول وفاول Football- Basketball' Faule بالاضافة الى كلمتي (جيب وصندويتش) وسواهما ومع هذا فلا نستطيع أن نقول مع ريبرا ان العالم يستعمل في شؤونه اليومية وأحاديثه العادية لهجة من الانكليزية أو السكسونية الدارجة ولو صحت نظرية ريبرا من أساسها لكان العراقيون الآن يستمعون بدون عناء الى اذاعة طهران ، ولكنا مثلهم في الشام باستماعنا لاذاعة أنقرة التي كان يجب أن تذيع بالبيزنطية حسب نظرية ريبرا التي أيدها غنثالث ، ولكن الذي نراه وسمعنا به أن الاسبان أنفسهم كانوا يكتبون صكوكهم ومعاملاتهم باللغة العربية التي ظلت لغة الثقافة عند الاسبان الى ما بعد الجلاء العربي عن الاندلس فقد ذكر الامير شكيب أرسلان في الجزء الثاني من كتاب حاضر العالم الاسلامي بعد كلامه نقلا عن ابن عبد الرفيع النازح الاندلسي الذي استطاع أن يزور الاندلس بعد جلاء أهلها

عنها : (ان من عرف كون ابن عبد الرفيع توفي عام ١٠٥٢ هـ يظهر له أنه منذ نيف وثلاثمئة سنة فقط كان في جيان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس يدينون بالاسلام سرا وأغرب من هذا وجود هؤلاء في طليطلة المصاقبة لمجريط والتي كان مضى على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرفيع أكثر من خمسمئة سنة ، ولقد علمت من كتب الاوروبيين أن اللغة العربية بقيت هي لغة الثقافة عند الاسبانيول ولغة المعاملات والاخذ والعطاء وبها تكتب النصوص والعقود الى سنة ١٥٨٠ ميلادية فعند ذلك صدر الامر من الدولة الاسبانية بمنع الكتابة والكلام بالعربي . ولقد سمعت ما هو أغرب من هذا وهو أنه بقيت قرى الى أوائل القرن التاسع عشر في نواحي بلنسية يتكلم أهلها بالعربي . أمّا تحجّب النساء في بعض قرى بلنسية وفي بعض قرى الجنوب مثل طريف فباق الى يومنا هذا . ولديّ مجموع وثائق كبير طبعه (أنجل غونزالز بلنسية) من أساتيذ الآداب في جامعة مجريط اسمه المستعربون في طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وهو يتضمن صكوك بيع وشراء نقلت عن خطها العربي الاصيل بالزنكوغرافيا وجعلت بإزائها ترجمتها بالاسبانيولي نذكر منها :

اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبد السلام جميع الدار التي له بحومة القشالين حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد وفي الغرب دار (جلبرت الافرنجي) بثمن عدته أربعون دنيراً من الدنيرات الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ في شهر ابريل الكائن في سنة واحد وثلاثين ومئة وألف من تاريخ الصفر .

ومن شهود الاصل فيه فرج بن عبد الله ومسعود زرقون شهد وكتب ، وبالاعجمي يشتش فيتش بطرة تشتش . صحت هذه النسخة الخ .. بالعشر الاوسط من شهر شتنبر سنة ثلاثين ومئتين وألف للصفر (م) يوان بن يليان الصقلي شهد ويوانش بن مقايل بن عبد العزيز المشنارى وباطرة بن عمر بن غالب بن القلاس) .

انتهى كلام الامير شكيب أرسلان وهذه المجموعة التي ذكرها تشتمل على ١٥١ صكاً يفهم الناظر فيها أن التعامل كان في طليطلة بعد استيلاء الاسبان عليها سنة ٤٧٥ هجرية و ١٠٨٥ م بخمسمئة سنة لا يزال باللغة العربية وإن أكثر أهلها كانوا عرباً أو مستعربين وان بعضا منهم كانوا غير مستعربين وكانوا لا يعرفون أن يوقعوا بالعربي فكان يكتب أنهم وقعوا بالعجمي ومما يدل على أن العروبة قد كانت هي السائدة في الاندلس أنه ان كان ثمة شاهد أو بائع أو مشتر افرنجي جرى تعريفه بلفظ الافرنجي ويرى الناظر في هذه المجموعة أن أناسا أسماؤهم مسيحية وأسماء آبائهم أو أجدادهم اسلامية مما يدل على كونهم تنصروا فيما بعد ثم أنه كان الطقس الكنسي في طليطلة بالعربي وكان يختلف عن الطقس اللاتيني في ثلاث عشرة نقطة كما ذكر الامير شكيب في الصفحات ٢٦ – ٢٩ من الجزء الثاني من كتابه حاضر العالم الاسلامي .

يهمنا من هذه النصوص أن نذكر أن مجتمعاً هذه لغته بعد الاحتلال الاسباني بخمسمئة عام أو أكثر بالنسبة لبعض المقاطعات لايمكن أنتكون عاميته لاتينية وأعلام الفتح العربي ترفرف على الاندلس وصقلية فيتنسم رفيفها السادرون في مهامه الجهالة فيما وراء البيرنه . ولو كان لدى أجدادنا هذا الازدواج اللغوي لما استطاع صاحب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيبأن يؤلف كتابه الادبي الرائع وهو المتوفى في عام ١٠٤١ هجرية ، ولو كان أجدادنا يتكلمون اللاتينية الدارجة فيما بينهم لكانت اللغة العربية بالنسبة اليهم لغة أجنبية ومن المستحيل أن يكون المرء في غير لغته الاصيلة كاتباً نحريرا أو شاعرا فذا والا فلنحاول نحن النظم باللغة الفرنسية أو الانكليزية ان استطعنا ما دامت احداهما كاللغة العربية تمسها بالنسبة الى لهجتنا الاصلية اذا صحت نظرية ريبرا في الازدواج !.

اجل ان نظرية ريبرا لا تستطيع أن تفسر لنا هذا التراث الادبي الشعري والفكري الهائل الذي تركه لنا أهل الاندلس بل انها لتنفيه ان كانت صحيحة ولن تستطيع .

الواقع ان الاسلام قد طبع بميسم العروبة والعربية كل قطر دخله .

المـرأة الأندلسـيـة

لعل من غير المفيد مبدئيا أن تتلمس الفوارق بين الرجل والمرأة ليتم لنا الحديث عن تقدم المجتمع أو تأخره نظرا للعلاقة المتشابكة بين الجنسين ولمتانة الوشائج من قرابة وزواج وحب فاذا حكمنا على المجتمع الاندلسي بالرقي والتمدن وبالتدين أيضاً فإن هذا الحكم نفسه ينطبق على نساء الاندلس كما ينطبق على رجالها • ونحن لا نستطيع أن تتصور رجلا بلغ مبلغا من الادب والعلم أو انحط الى درك من الجهالة والغباء الا ويفضي بمكنون نفسه الى إلفه أو زوجته ويتحدث بما لديه من معلومات وأخبار الى من يحيطون به من رجال ونساء فلا بد والحالة هذه من أن يتجاوب الجنسان دائما في الرقي والانحطاط ، فحين قام الرسول قامت الى جانبه زوجته خديجة وروت حديثه زوجته عائشة وتحدر نسله من ابنته فاطمة الزهراء • وفي بادية بني عذرة حيث تسود مفاهيم العفاف ويتضمخ الحب الجارف بعبير الطهارة والحفاظ، وجد قيس وتوبة وجميل فتجاوبت معهم في عذرية الحب وعفافه لبنى وليلى الاخيلية والعامرية وبثينة • والى جانب عمر بن أبي ربيعة واتباع مدرسته قامت كواعب الحجاز وفاتناته اللواتي جمعن بين مرح الانوثة وعفاف التدين فقال فيهن عمر :

يحسبن من لين الكلام فواسقـا ويصونهن عن الخنى الاسلام

ولا يمكننا بالمقابل أن نرى مجتمعاً تفسق فيه المرأة وتخرج على القيم

والاخلاق الا وقد فسد فيه الرجل من قبلها وتماجن ، ولولا الناطفي لما سمعنا بجاريته عنان ولم نسمع باسم عنان الا مقترنا بأسماء النواسي والخليع وحماد عجرد ، على أن هذا التطابق يفيد التجاوب وحده ولكنه لا يفيد أبدا المساواة المطلقة أو عدم التفاوت فلن نستطيع الحديث عن نساء الاندلس بمثل الاستفاضة التي نتحدث بها عن رجالها نظرا لطبيعة الاختصاص التي تكبح أحد الجنسين عن منحى ما ليسبقه الجنس الآخر فيه ، وهل نستطيع الآن مثلاً أن نعد من الطبيبات والمحاميات والمشتغلات بالسياسة والادب في أكثر الاقطار حضارة وانطلاقا بقدر ما نعد من الرجال ، لا أقصد المفاضلة بقدر ما أقصد الى بيان المدى الذي تنطبق عليه مقاييسنا كماً وكيفاً بالنسبة للمرأة في الاندلس . والحديث عن المرأة عموما وعن المرأة الاندلسية بخاصة هو ضروري من ناحية تأثير المرأة في المجتمع ماديا ومعنويا . فمهما كان شأن الرجل فان عواطفه تظل مع المرأة دائما وإن تساميه واقدامه هو في سبيل الظفر باعجابها أبداً ثم انه بحكم الوراثة مدين الى دماء أمهاته بقدر ما هو مدين الى مآثر آبائه وأجداده ، وكما كان من الداخلين الى الاندلس (صحابي واحد اسمه المنذر الافريقي ودخلها من التابعين حنش بن عبد الله الصنعاني وعلي ابن عبد الرحمن اللخمي وعياض بن عقبة الفهري وموسى بن نصير)[1] (وطارق وطريف وسواهم من غمار العرب والبربر الذين اختلطوا بمن أسلم من الاسبان ، فقد دخلها كذلك من أعلام النساء عابدة المدنية وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة . وكانت حالكة اللون غير أنها تروي عن مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة حتى قال بعض الحفاظ أنها تروي عشرة آلاف حديث ومنهن فضل المدنية وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال ومنهن قلم البشكنسية الاصل وقمر جارية ابراهيم بن حجاج اللخمي صاحب اشبيلية وجلبت اليه من بغداد)[2] . (ودخلت الاندلس فرقة من الجواري المشرقيات

---

١ — جزيرة الاندلس للحميري ص ٤

٢ — نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٦ — ١٣٧

اللائي أخذن عن ابراهيم الموصلي واتخذن إمامهن زريابا الذي سبقهن الى الاندلس)[1] .

ومن خلال هذه النماذج النسائية نستطيع أن نلمح بالانعكاس صــور المنذر بن سعيد البلوطي ويحيى الليثي وسواهما من الفقهاء وأن نرى ابن خفاجة وابن دراج وابن حمديس الصقلي وسواهم من شعراء الطبيعة والغزل كما نستطيع أن نفهم لماذا هام ابن زيدون بالولادة وبنى الداخل مدينــة الزهراء وكيف ألف ابن حزم طوق الحمامة في الالفة والآلاف .

وقد أصبح هذا المزيج النسائي على توالى الأيام ودخول الاسبانيين والاسبانيات وسواهم في الاسلام يحمل الخصائص والعادات التي نقلها أحمد أمين عن لسان الدين بن الخطيب حين قال : (وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المجاورة ، الا أن الطول يندر فيهن وقــد يبلغن في التفنن بالزينة والمظاهرة بين المصبغات والتنافس بالذهبيات والديباجات والتماجن في أشكال الحلي الى الغاية)[2] .

ولا يبلغن بنا الظن الى أن كل امرأة في الاندلس يجب أن تكون مــن المشهورات أو المعدودات بين ذوات العلم والادب ، اذ يحدثنا أحمد أمـين مسترسلاً أن النساء كن أميات على الاكثر ، وقد انتشر بينهن الحجاب ولا أستطيع أن أتصور أن انتشاره بينهن قد سبق انتشاره بين نساء المشرق ولكن هذا لا يقدح في رقي المجتمع الاندلسي نساءه ورجاله فنحن نعلم أن علوم زمنهم كانت تقوم على السماع والنقل وقد تكون المرأة مغنيــة أو راقصة بدون أن تبرع في الخط والحساب ، وقد يؤثر الجمال وهو صامت وتتكلم وضاءة الوجه في الروح الخامدة ، وقد يروي الرجل أو المرأة أخبار الشعراء

---

١ ــ ظهر الاسلام احمد امين ص ٣ ج ١
٢ ــ كتاب طوق الحمامة لابن حزم

وسير المتقدمين بدون أن يتدارس الكتب أو يناقش النظريات وما كانت نساء الامم المعاصرة لهم بأرفع من نساء الاندلس قيمة ولا أغزر علماً .

وقد طغى سيل الجواري نتيجة للفتح والاسترقاق وكان الرقيق الابيض مصدر ثراء لفئة من التجار وكانت تربية الجواري وتثقيفهن وتدريبهن مصدر ثراء لفريق آخر فعجت البيوت بالسبيات وكان في نضارتهن وجمالهن وتنوع تركيبهن باختلاف المواطن ما يغري الرجال بالتسري والاكثار منه ، فكان الامويون كما قال ابن حزم يفضلون الشقراوات من الجواري ويقبلون على التسري بهن حتى شاعت الشقرة والبياض وزرقة العيون بين الخلفاء الامويين أنفسهم . ثم حدثنا ابن حزم في طوق الحمامة فقال : (ان المنصور ابن أبي عامر أنفق عشرات ألوف الدنانير في شراء الجواري وتبديلهن)[٣] .

وقد كان لهذا المجتمع النسائي الوافد أثره في مجتمع الاندلس وأخلاق رجاله وكان للحريم تأثيره في تكوين الطباع والعادات لدى أبناء المترفين في الاندلس . وهذا ابن حزم يعود فيحدثنا عن نشأته في مثل هذا الوسط الانثوي الناعم وتأثره به حين قال : (ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال الا وأنا في حد الشباب وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الاشعار ودربنني في الخط ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة الا في تعرف أسبابهن والتحدث عن أخبارهن)[٣] .

وبإمعان النظر فيما قاله ابن حزم يتضح لنا أن بعضا من البيوتات كانت تستأجر النساء أو تشتري الجواري ليعملن كمربيات للاطفال ومعلمات لتثقيف الصغار والا لقاد الوزير الاب ولده ابن حزم الى الكتاب ليتعلم فيه الخط والقرآن ولكنه آثر في ذلك جواري قصره ولا ريب في أن ابن

---

١ و ٢ ــ كتاب طوق الحمامة لابن حزم

حزم لم يكن الطفل الوحيد الذي بلغ حد الشباب وهو في رحاب الحريم •

ويرجّح المستشرقون أن ابن حزم أتى من أم فرنجية الاصل وبالـغ بعضهم فرآه اسباني الآباء وهكذا فقد نشأ جيل من المولدين تجري فيدمائهم مصول قوطيـة وفاندالية وفرنجية الى جانب الدمـاء العربية والبربريـة التي كانت تجري في عروق الفاتحين وليس في هذا مدعاة للخوف والجزع فلقد ظل الطابع العربي الاسلامي مسيطرا على المجتمع حتى نهاية الاندلس•

ومن الطبيعي أن هؤلاء الامهات الوافدات كن يختلفن عن مثيلاتهن في المشرق حيث كانت السبيات من حسناوات فارس وسمراوات الهند ومنا وراء النهر وقد يكون بعضهن سوداوات كتلك التي قال فيها الشاعر :

أحب لحبها السـودان حتـى　　　أحب لحبهـا سود الكلاب

أما حسان الاندلس فقد كن من أصول اسبانية وفرنجية وسلافية الى جانب ما في الاندلس من نساء عربيات •

ونظراً لابتعاد المواطن الاندلسي وضعف العصبية فيه فلم يوجـد أعرابي واحد يقول شيئا عن أبناء أولئك السبيات • فلم نسمع من يقول في الاندلس عن هشام المؤيد ما قاله ناهض الكلابي عن المأمون حينما قالوا له : ان أمير المؤمنين ابن أمة فأجابهم قائلا : أخزى الله من اتبعه • كما سلم أبناء السبايا في الاندلس من مثل غمزات متعصب المشرق حين قال فيهم :

ان أبنـاء السـراري　　　كثـرت يا رب فينا
رب أدخلنـي بلادا　　　لا أرى فيهـا هجينا

فلم يكن أحد يرى في هجنة الام بالاندلس أية سبة وان كان أولئك الامهات انما دخلن قصور الخلفاء والامراء كمتجسسات لحساب الاعـداء كما يرجح الاستاذ أحمد أمين •

ولا نستغرب والحالة هذه أثر الحريم في سياسة الدولة وان لم يكن يظهرن الا من وراء حجاب (فقد بلغ عدد ولد عبد الرحمن الثاني الاوسط مئة وخمسين من الذكور وخمسين من الاناث)[1] • ومن البدهي أنهم لم يجيئوا جميعا من أم واحدة بل (كان كثير الميل للنساء ولع بجاريته طروب وكلف بها كلفا شديدا)[2]

ونحن نعرف أثر التنافس في حب ولادة بين الوزيرين ابن زيدون وابن عبدوس وما جرّه هذا التنافس في الحب على شاعرنا المسكين من دسائس وويلات • ولولا هذا الغرام ما ذهب ابن زيدون الى اشبيلية ولا عرف رحاب المعتضد والمعتمد بعد أن كان سجنه في عهد ابي الحزم موضع شبهة وغموض •

ويجرنا حديث النساء الى الكلام عن اعتماد الرميكية التي انتقلت بذكائها وسرعة بديهتها من تنظيف ثياب سيدها الرميكي على ضفة النهر الى حيث خاضت في الطيب عند الملك الشاعر ابن عباد • ويحدثنا ابن حزم أن الجواري كن يقعن في شراك المنصور بن ابي عامر وتحت تأثيره بينما كان هو على استكثاره منهن كثير التقلب والميل ، وهو الذي عهدناه يشغف الملكة صبحا أم المؤيد حبا • وقد وصلت المرأة في الاندلس على العموم الى حال ترفع معها وتضع كما قال ابن زيدون في حديثه عن الولادة :

أرخصتِني من بعد ما أغليتني وحططتِني من بعد ما أعليتني
كنتِ المنى فأذقتني غصص الاذى يا ليتني ما فهت فيك بليتني

وقد حق للولادة أن تبلغ منه هذا المبلغ بحكم سلطتيها من حسن وجاه وهي التي يقول فيها :

ملك القلوب بحسنه فلها اذا أمر انقياد

---

١ ــ نفح الطيب ص ٢٨٩
٢ ــ المصدر نفسه

ويقول في حسبها العريق :

ما ضر ان لم نكن أكفاءها شرفا　　وفي المودة كاف عن تكافينا

وقد استحقت المرأة الاندلسية هذا الشرف في بعض الاحيان عن جدارة واستحقاق فإن اعتمادا لم تصل الى قصر المعتمد بن عباد الا" وقد تفوقت عليه وعلى شاعره ابن عمار في البديهية والارتجال ، ولقد بلغت أوج الدلال في سجعها وجناسها حين قالت وقد مرض المعتمد : (يا سيدي ما لنا قدرة على مرضاتك في مرضاتك)[1] .

وقد تبلغ بعض النساء بذكائها الفطري ودهائها في الحديث درجة التفقه في الدين والتبحر في علم الكلام :

ومهما هززت اليك العتاب　　ظاهرت بين ضروب العلل
كأنك ناظرت أهل الكلام　　وأوتيت فهما بعلم الجدل

ولقد شعرت المرأة بأهميتها في المجتمع فسفرت للرجل تصاوله وتجادله وتجعل من بيتها منتدى يلتقي فيه الادباء والشعراء فتقدمت الولادة في هذا المضمار على مدام روكامبيه ومدام دوورلان وسواهما من صاحبات « الصالونات الادبية » الفرنسية في القرن الثامن عشر وكانت قد سبقت الولادة الى ذلك في الشرق سكينة وعلية وعذراوات البادية .

ومن الطبعي أن يرافق هذا التحرر ثورة على الاعراف والتقاليد جعلت من طراز الثوب عند الولادة اعلانا عن الاباحة والانطلاق حينما كتبت عليه:

أنا والله أصلح للمعالي　　وأمشي مشيتي وأتيه فيها
أمكن عاشقي من لثم خدي　　وأمنح قبلتي من يشتهيها

---

١ ــ نفح الطيب ج ٥ ص ٣٤٣

وكنا قد عرفنا المرأة في المشرق تكتفي بالتلميح دون التصريح وبالاشارة دون الاعلان . وقد بلغت هذه الثورة على المألوف حدها عند حمدة بنت زياد المؤدب التي قالت متغزلة بأحد الرجال :

ولما أبى الواشون الا فراقنا ... وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشنئوا على أسماعنا كل غارة ... وقلّت حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهموا من ناظريك وأدمعي ... ومن نَفَسي بالسيف والسيل والنار

وأما نزهون القلاعية فقد بلغت في مداعباتها حداً من المجون نعف عن ذكر الامثلة عنه .

واذا كان لخروج المرأة الى المجتمع أثره في رقي الاخلاق والآداب فلكل أمر ناحيته السالبة أيضا . وقد تكون الحرية خطرا على ضعاف النفوس ، فهذا ابن حزم يحدثنا عن وسائل المحبين ورسائلهم ، ولن نحمل حديثه على البراءة دائما ، فليست كل سفارة من هذا القبيل انما تصل ما بين بثينة ومثل جميل . بل ان الشك ليساورنا في هؤلاء الرسل الذين حدثنا عنهم قائلا : (وأكثر ما يستعمل المحبون في ارسالهم الى من يحبونه اما حائلا لا يؤبه له ولا يهتدى للتحفظ منه لصباه أو جليلا لا تلحقه الظنن لنسك يظهره وما أكثر هؤلاء في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح)[1] . ونستطيع أن ندرك من هذا مبلغ الفساد الذي يصيب الناشئة من جراء هذه السفارات ونستطيع أن ندرك أنها قد أصبحت مهنة تبتكر فيها الحيل وتتعهدها فئة خاصة من عجائز النساء ، ولن يفخر علينا أحد باستخدام الحمام الزاجل فقد سبقنا الاندلسيون وسبقوا معاصرينا في استخدامه ولنستمع الى ابن حزم وهو يحدثنا عن هذا التراسل الطريف قائلا : (واني لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ويعقد الكتاب في جناحها وفي ذلك أقول :

١ ـ طوق الحمامة في الالفة والالاف للامام ابن حزم

تخيّرها نوحٌ فما خاب ظنّه لديها وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبي اليك فهاكها رسائل تهدى في قوادم طائر[1]

وسرى الترخص في استباحة الوصال والحب الى صفوف الفقهاء والعلماء ، ولعل هؤلاء وآخرين غيرهم قد امتازوا بالتزام الحد المباح من الوصال والغزل مع صواحبهم وقد عرفنا منهم في الشرق الشريف الرضي والشعراء العذريين ومشى على آثارهم في الغرب ابن حزم وداوود الظاهري، وهذا صاحب الطوق يدعو الى هذا النوع من الحب الشريف البريء حين يقول : (فبحسب المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل ، وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، اذ القلوب بيد مقلبها ثم أنشد ـ مفتيا ـ :

متى جاء تحريم الهوى عن محمد وهل حيفه في محكم الذكر ثابت
اذا لم أواقع محرما أتقي به مجيئي يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالي في الهوى قول محرم سواء لعمري جاهر ومخافت[2]

وقد حدثنا ابن حزم في غير هذا الموضع كما حدثنا عمر بن أبي ربيعة من قبل أنه لم يكشف حراما قط .

وقد كثرت دسائس الجنس ومكائد الحب وبواعث الغيرة والحقد (فكم من سقي السم فقطعت أمعاؤه وهذه كانت ميتة مروان بن احمد من قبل قطر الندى جاريته)[3] .

على أن النساء جميعهن لم يكنّ موضع طلب وغزل اذ كانت صلاحية الشعراء في هذا المجال ضيقة بحيث لا تستطيع أن تتطرق بحال الى الجآذر الراتعة في غرف القصور المالكة (ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرا تغزل فيه بصبح أم المؤيد فغنت به جارية أدخلت على المنصور بن أبي عامر فأمر

١و٢و٣ ـ طوق الحمامة في الالفة والالاف للامام ابن حزم

بقتلها . وكذلك قتل أحمد بن مغيث واستؤصل آل مغيث وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء)[1] .

ولعل السبب البعيد للقتل في أمثال هذه الحال أن الغزل كان وسيلة من وسائل التشهير والتعريض وجزءاً من الهجاء السياسي الذي مارس مثله عبيد الله بن قيس الرقيات حينما شبب بنساء الامويين تعصبا مع الزبيريين .

وهكذا فقد برزت المرأة في المجتمع الاندلسي أمام المسرح تارة ومن ورائه تارة أخرى وقد ظهر دورها جلياً في زمن الموحدين حيث استأثرت النساء في أواخره بشؤون التولية والعزل حتى كانت حول كل امرأة من المشهورات حاشية تدبر المكائد وتستأثر بالوظائف والمنافع وكان لها في الحالين أثرها المشرق أو السالب . ولكننا لا نستطيع أن نقتصر في تتبع هذا الاثر على أشخاص النساء وحدهن فانما يظهر أثر الجنس في غيره ويفتش عن سحر المرأة وتأثيرها في عواطف الرجل وانفعالاته فهو يختزن من ذكرياتها وايحاءاتها في عقله الباطن ما أمكن ويفعل بوحيها ما يفعل طلباً للتفاخر والمباهاة حتى لكأن المرأة تحرك المجتمع وتسيّر العالم . وقد لا تكون الكهرباء شيئا محسوسا ولكنها مع ذلك مادة نور وخير وحركة واضرار واظلام .

وبعد فقد كان آخر صوت سمع في أجواء الاندلس هو صوت المرأة العجوز أم أبي عبد الله الصغير وهي تؤنب ابنها الملك المتخاذل قائلة :

إبك مثل النساء ملكا مضاعــا لم تحافظ عليه مثل الرجــال

وكان صوتاً نسائيا وكان باكيا ، ومن وراء قضبان الحديد في أغمات كان صوت المعتمد بن عباد يتهدج وهو يقول معاتبا زوجته : حتى ولا يوم الطيب !!.

فتدمع عينا اعتماد ثم تعود مع بناتها الى الغزال ليأكل المعتمد الاسير ويأكلن معه .

---

١ ــ طوق الحمامة في الالفة والالاف للامام ابن حزم

الثراء والعمران

لقد كان التسري دليلاً على اليسار وتنيجة من تنائجه (فقد كان لبضعة آلاف من الفاتحين أن ينتشروا في بقاع شبه الجزيرة البالغة في مساحتها ١٩٦٦٠٧ ميلا مربعاً)[١] .

يستثنى منها منطقة الجلالقة الجبلية القاحلة . ولكن حصار العرب لبواتييه واستيلاءهم فيما بعد على سردينيا وصقلية كان يعني استيلاءهم على ما دونها من بقاع تتجاوز نطاق شبه الجزيرة الى فرنسا وايطاليا . وما كانت التجمعات الاجنبية التي تهب للمقاومة ومحاولة الانتقاض في بادىء الامر الا لتزيد المسلمين غنائم وأسلاباً . (وان كثرة القتلى والغنائم العظيمة التي كان العرب يجمعونها بعد المعارك كانت أعظم مما تستطيع بلاد الجلالقة الجبلية القاحلة أن تهيئه . فالعرب في الاندلس لم يكونوا يحاربون الاسبانيين وحدهم بل كانوا يحاربون جميع الامم التي كانت في أوروبا الغربية والوسطى آنذاك)[٢] . ومن هذه الغنائم ومن الجزية المضروبة على الذميين ومن غلال الجزيرة الخضراء كانت تتشكل ثروة هائلة . فالاندلس قطر من أقطار البحر الابيض المتوسط وفيها كل ما ينبت في اقليمه من الخضار والثمار وما تحمل أشجاره من الفواكه والعنب والتين والتفاح والسفرجل والحمضيات والزيتون

---

١ و ٢ ــ محاضرات الدكتور فروخ في الجامعة السورية

بالاضافة الى ما كان فيها من ثروة معدنية • ومن هنا كثر وصف الفواكـه في أشعارهم ومما جاء في وصف النارنج قول أبي محمد عبد الله ابن سارة :

كرات عقيق في غصون زبرجد   بكف نسيم الريح منها صوالج
نقبّلها طـورا وطورا نشمهـا   فهن خـدود بيننا ونوافــج

وكتب ابن زيدون بيته المشهور مع تفاح أهداه وقال فيه :

جاءتـك جامـدة المـدام   فخـذ عليهـا ذوبهـا

ومن المعروف أن البرتقال قد استمد اسمه من غربي الجزيرة في حـين سمي بعض البقاع باسم الشجر الذي يكثر فيها كوادي الزيتون واشتهرت بعض المدن بأنواع خاصة من الفواكه (قيل لأحد الخلفاء وقد أشرف علـى الموت : اسأل ربك المغفرة فرفع يديه وقال : يارب أسألك من جميع ما في الجنة خمر مالقة وزبيب اشبيلية)[1] •

وأما غرناطة فانها كما قال نفح الطيب : دمشق بلاد الاندلس • وكـان الكتان من زراعات الاندلس اذ يقول الاشبيلي :

النهر منساب سرت خلجانة   في الروض بين أزاهـر الكتان

ولقد كانت خيرات الاندلس مثار مباهاة وفخر عند الاندلسيين فقال ابن خفاجـة :

يا أهل اندلس لله دركـمُ   فيء وماء وأشجـار وأطيار
ماجنة الخلد الا دون أرضكمُ   ولو تخيرت هذي كنت أختار
يا قوم لن تدخلوا من بعدها سقرا   فليس تدخل بعد الجنة النـار

ولن نستغرب بعد هذا اذا ازداد الثراء في الاندلس ، وان مقياس الثراء كما كان يمكن أن يقدمه لنا التاريخ القديم انما يتمثل في دخل الدولة وخزينة الدولة جيوب رعاياها كما يقال •

---

١ ـ نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٦

وليس لدينا مع الاسف كتاب كالاغاني يمكنه أن يقدم الينا نماذج عن ثروات الافراد وليست في تاريخ الاندلس قصة أو شاهد نستدل بها على مبلغ الرفاه الاجتماعي كتلك التي روت لنا أن شخصا واحدا لم يكن يستحق الزكاة في زمن عمر بن عبد العزيز ، ولكننا نستطيع بشكل تقريبي أن ننفي البؤس عن مجتمع الاندلس اذا تذكرنا ما أثر عن القوم من حب العمل والكد ومن النظرة المنفرة الى التسول ونستطيع أن نتوسع في هذا القياس بدون أن نعمم • وكان اليسار يبدو بصورة أكثر في طوائف الشعراء والادباء والوزراء وبين القصور • والحديث عن الجواري في قصور آل حزم أمر يستلفت النظر • وعلى كل فاننا لن نستطيع أن نتبين مبلغ اليسر الاجتماعي في الاندلس الا بمنظار رسمي لانعدام الوثائق المتعلقة بثروات الافراد وتوزيع الدخل ولاتجاه التاريخ القديم وجهة فردية وغير اجتماعية • (فقد انتهت جباية قرطبة وحدها في أيام المنصور ابن أبي عامر الى ثلاثة آلاف ألف دينار)[1] • (وكانت جباية شذونه في أيام الامير الحكم بن هشام خمسين ألفا وستمئة ألف وبلغ دخل الدولة السنوي من الضرائب والمكوس في عهد عبد الرحمن الناصر عشرين مليون دينار ويقول الاستاذ بروفنسال أنها بلغت فيما بعد أربعين مليونا والدينار لا يصح أن يقارن بالجنيه المصري اليوم لأن قيمة كل منهما انما كانت في قدرته على الشراء وكانت قدرة الدينار اذ ذاك أكبر)[2] •

وقد تبدل الامر حينما أصبح المسلمون هم الذين يدفعون الجزية وانتقل طريق الثروة راجعا من قرطبة الى قشتالة :

الروم تضرب في البلاد وتغنم ... والعرب تأخذ ما سيبقي المغرم
والمال يورد كله قشتالة ... فالله يلطف بالعباد ويرحم

واذا كان الثراء المفرط سببا في الاكثار من الجواري والحريم كما رأينا فلا بد للحريم من حرم واذا توسعت العائلة ضاق بها سكنها الواحد بالضرورة ثم يأتي البذخ فيوسع في مفهوم الضرورة ويستدعي توسع

---

١ ــ نفح الطيب ج ١ ص ٧
٢ ــ ظهر الاسلام ص ٦

العمران بقدر ما يقضي على وحدة العائلة وقوة الروابط بينها ـ ولعائلته ولخدمه وحشمه ، بنى الناصر مدينة الزهراء (فقد ذكر المؤرخ أبو حيان أن مباني الزهراء قد اشتملت على أربعة آلاف سارية وان مصاريع أبوابها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب • وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمئة وخمسين وعدد النساء بقصر الزهراء وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمئة امرأة وأربع عشرة)[1] • (وقالوا إنه عمل في بنائها عشرة آلاف عامل في خمس وعشرين سنة)[2] • وقد بناها الناصر ارضاءا لجارية له اسمها الزهراء • يا للسخرية ! أغلب الظن أنها بلغت حدود الخمسين حين تم بناء مدينتها الزهراء !!•

وبنيت الزاهرة قريبا من الزهراء (ويحكى أن العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة اتصلت الى أن كان يمشي فيها بضوء السراج عشرة أميال)[3] • أي أن العرب قد عرفوا نظام انارة الشوارع وان قرطبة كانت تشبه في امتدادها نيويورك أو لندن أو القاهرة التي تتصل بضواحيها اتصالا يجعلها بحكم المدينة الواحدة (وقد انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل الى أربعمئة وتسعين مسجدا ثم زادت بعد ذلك كثيرا • وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلاثمئة وكانت عدة الدور في القصر الكبير أربعمئة دار ونيفا وثلاثين • وكانت عدة الرعايا والسواد بها الواجب على أهلها المبيت في السور مئة الف دار وثلاثة عشرة ألف دار حاشى دور الوزراء وأكابر الناس• وقال ابن حيان أن عدة المساجد عند تناهيها في مدة ابن أبي عامر ألف وستمئة مسجد والحمامات تسعمئة)[4] •

وهذه الكثرة في عدد الحمامات تستدعي الاهتمام والمقارنة فقد حدث الحميري في روضة المعطار عن الجلالقة فقال : (وبلد الجليقيين سهل وأهلها

---

١ ـ نفح الطيب ج ٢
٢ ـ ظهر الاسلام ص ٧
٣ ـ نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٣
٤ ـ نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٧٩

أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام الا مرة أو مرتين ولا يغسلون ثيابهم منــذ يلبسونها الــى أن تنقطع عليهم)[1] . وما حديث الملكة ايزابيلا التي آلت على نفسها ألا تغتسل حتى تسترد الاندلس أمراً يخفى على أحد ــ ليت شعري هل هفت اليها نفس الملك فرديناند بعد هذه الفترة الطويلة من عدم الاغتسال !!.

وقد كانت الحمامات مثار انتقام الاسبان حينما استولوا على الاندلس فهدموها تعصبا لأنهم كانوا يرون أن النظافة فرض من شعائر الاسلام وفقا لما ذكره الامير شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الاسلامي . وقد زيّن الاندلسيون مساجدهم وأبنيتهم فامتلأت بكل نفيس من المصابيح والآنية فكان (في مسجد قرطبة مئة وثلاث عشرة ثريا للوقيد أكبرها واحدة تحمل ألف مصباح ، وخشب منبره من الآبنوس . ويقال أنه صنع في سبع سنين . ولهذا الجامع عشرون بابا مصفحة بصفائح النحاس . ويخدم الجامع ستون رجلا عليهم قائم ينظر في أمورهم)[2] (وكان في المريــة ألف الا ثلاثين فندقا مقيدة في ديوان الخراج)[3] ويمكننا أن نفسر حركة التجارة والرحلات على ضوء هذا العدد من الفنادق . وكانت هذه السعة في العمران وهذا الاهتمام في النقش والتزيين مصدر اعتزاز الاندلسيين وفخرهم ، وكــان لهــا أثرها في اختفاء شعر الاطلال عندهم والخروج على عمود الشعر القديم لأن الحديث عن العمران والرياض والتماثيل قد حل عندهم محل وصف الاطلال فنحن لا نجد في أشعار الاندلسيين ومفتتحات قصائدهم ذكرا لدارمية بالعلياء فالسند ولا لسقط اللوى بين الدخول فحومل . ولكننا نلمس شعر الحنين الى مكة وطيبة وصور اطلال جديدة حية تكاد تنطق وصفات مناطق يملؤها العمران وتمتد فيها البساتين كالتي قال فيها عامر بن هشام القرطبي :

---

١ ــ صفة جزيرة الاندلس ص ٦٦
٢ ــ صفة الجزيرة ص ١٥٤ ــ ١٥٦
٣ ــ ظهر الاسلام ص ١٢

يا هبة باكرت من نحو دارين رفت عليّ على بعد تحييني
مسارح كم بها سرّحت من كمد قلبي وطرفي ولا سلوان يثنيني
بين المصلى الى وادي العقيق وما يزال مثل اسمه مذبان يبكيني
الى الرصافة فالمرج النضير فوادي الدير فالعطف من بطحاء عبدون
وأين يعدل عن أرجاء قرطبة من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
قطر فسيح ونهر ما به كدر حفّت بشطيه ألفاف البساتين

واعتنى الاندلسيون بصنع التماثيل والصور التي تحكي صور الاشخاص والحيوانات (وكان بحمام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الاندلس بقوله :

ودمية مرمر تزهى بجيد تناهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف خليلاً ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن تتيّمنا بألحاظ مراض)(١)

وقال الاعمى التطيلي في وصف أسد رخام يرمي بالماء على بحيرة :

أسد ولو أنّي أنا شدة الحساب لقلت صخره
وكأنه أسد السماء يمج من فيه المجره

ومن الطبيعي أن فن العمران في الاندلس قد تكوّن مما حمله العرب معهم من مزاج الفن البيزنطي والفارسي ولكن الاثر القوطي أصبح واضح الظهور فيه .

وكانت الكتابة العربية دعامة من دعائم الزخرفة والتزيين لخطها الكوفي الجميل حتى لكان يحسبه المقلدون من الاسبان والإفرنج رسما ولهذا فقد وجدوا نقش: بسم الله الرحمن الرحيم ، على أحد الصلبان «وحدث أن ملك مرسية واسمه (أوفا) صك نقودا محفوظا بعضها في المتحف البريطاني وقد كتب على قطع النقود اسم الملك باللغة اللاتينية وحوله

١ ـ نفح الطيب ج ١ ص ٧٣

كتابة عربية فيها لا اله الا الله »[1] . على أن هذه القصور والابنية التي كانت مثار بهجة للبعض كانت مصدر عبرة وعظة للبعض الآخر ممن أتيح لهم أن ينظروا الى هذه القصور بدون أن يحق لهم سكناها ، فأنشد أبو العاصي غالب بن امية المورورى لما جلس على نهر قرطبة بإزاء الربض ملتفتا الى القصر بديهة :

يا قصر كم حويت من نعم عادت لقىً بعوارض السكك
يا قصر كم حويت من ملك دارت عليه دوائر الفلك

وكان الزهد بدوره يدعو الى الحد من التباهي والسرف فقامت فئة من الفقهاء والزهاد تندب ما آل اليه أمر المسلمين وترى في هذا الاسراف نوعا من الانصراف عن حياة الجد والجهاد وتنظر الى هذا النعيم نظرتها الى الرذيلة والاثم فقال الفقيه ابن العسال :

لولا ذنوب المسلمين وانهم ركبوا الكبائر ما لهن خفاء
ما كان ينصر للنصارى فارس ابدا عليهم فالذنوب الداء
فشرارهم لا يختفون بشرهم وصلاح منتحلي الصلاح رياء

وكما نهى عمر بن الخطاب عن التطاول في البنيان واستبدل عمر بن عبد العزيز بسلاسل الذهب والفضة في جامع بني أمية سلاسل الحديد ، فقد وجدت الاندلس في أشخاص الفقهاء من يدعو الى الحد من التطاول في البنيان والسرف في الزينة والزخرف ووجد هؤلاء في التقوى الكامنة في نفوس الخلفاء والامراء وفي تظاهرهم بها أحيانا خير مستمع وخير مجيب . وقد يكون من محاسن تاريخنا أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كان يلقى صداه حتى في أشد العهود قسوة ودموية فالديموقراطية طبع أصيل في كيان الحكم العربي المسلم . وان الصورة التالية لتجمع بين نظرية هؤلاء ونظرية أولئك وتدل على استجابة السرف احيانا لنداء التقوى والزهد (فقد بنى

---

١ ـ ظهر الاسلام لأحمد أمين ص ٢٩٩

عبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين قبة واتخذ قراميد القبة من فضة وبعضها مغشى بالذهب وجعل سقفها نوعين ، صفراء فاقعة وبيضاء ناصعة فجلس فيها اثر تمامها بأهل مملكته وقال لقرابته ووزرائه مفتخرا عليهم : أرأيتم أم سمعتم ملكا كان قبلي صنع مثل ما صنعت فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين وانك لأوحد في شأنك ! فبينما هم على ذلك اذ دخل منذر بن سعيد البلوطي واجماً ناكساً رأسه فلما أخذ مجلسه قال له ما قاله لقرابته فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له : والله يا أمير المؤمنين ! ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين حتى ينزلك منازل الكافرين ! فاقشعر عبد الرحمن من قوله وقال له : انظر ما تقول ! كيف أنزلني منازلهم ؟ قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون !! » فوجم الخليفة عبد الرحمن ونكس رأسه ملياً ودموعه تنحدر على لحيته خشوعا وتذمما لما جرى . ثم أقبل على منذر ابن سعيد وقال له : جزاك الله عنا وعن الدين خيرا وكثر في الناس أمثالك ! وأمر بنقض سقف القبة وأعاده قرمدا على صفة غيرها)[1] .

وان المنذر بن سعيد الذي ثار على الاسراف والتطاول في البنيان هو نفسه الفقيه في الدين الذي ثار على التقليد والمقلدين في الدين حيث يقول :

عذيري من قوم اذا ما سألتهم دليلا يقولوا هكذا قال مالك
فإن قلت قال الله ضجوا وأعولوا عليّ وقالوا أنت خصم مماحك[2]

أجل ! ليت أجدادنا بالاندلس عمدوا الى الاكثار من بناء الحصون وسد الثغور واستبدلوا بسواري المساجد عوالي الرماح ! اذن لأرضوا بذلك الدين والضمير ! فقد ذهبت مساجد قرطبة بيد الاعداء مهدومة أو مغصوبة وبقي مسجد الرسول في المدينة المنورة على بساطة بنيانه وقلة زخرفه .

---

١ ــ صفة الجزيرة ص ١٤٠ ــ ١٤١
٢ ــ صفة الجزيرة ص ٤٢

الإدارة والجيش في الأندلس

عرف المسلمون الشورى في حكمهم منذ زمن الرسول وكان الخليفة يستشير خواص مملكته وأهل الرأي فيهم حتى في أشد العهود الاسلامية استبدادا وظلما . وانتقل الوضع ذاته الى الاندلس . ولما طلب من أبي الحزم ابن جهور ان يستلم مقاليد الامور اشترط أن يكون الى جانبه مجلس من أهل الرأي يستشيره في كبريات المشاكل . وكانت التقوى ترد الحكام والخلفاء الى الصواب بمجرد أن يستمعوا الى نصيحة من نصائح الدين كما مر معنا من حديث الناصر مع المنذر بن سعيد البلوطي . وكان القرآن مرجعهم الاخير مهما شذ الخليفة أو الامير في حكمه واستبد . وظل الكتاب الكريم في أطوار الحكم الاسلامي ومراحله وفي شتى أقطاره وأمصاره دستورا يمنع الامراء من الفوضى والاغراق في الاستبداد . فحين تقدمت اليمن المعاصرة بطلب انتسابها الى هيئة الامم المتحدة ونظامها يشترط في الدول الاعضاء أن تكون دولاً ذات سيادة وأن يكون لها دستور ، جاء في خطاب مندوب سورية الاستاذ فارس الخوري أن القرآن في اليمن يقوم مقام الدستور فاحتلت اليمن مقعدها في الهيئة الدولية على هذا الاساس ، فلنطمئن الى نظام الحكم في الاندلس ولنستروح فيه نسيم الحرية والديموقراطية وان لم نستطع تتبع خفاياه وتقسيماته في مختلف الامارات والدول ، أما انتقادنا الكبير فينصب على تجزؤ الدولة الواحدة وانقسامها وانغماس الكثير من الخلفاء وملوك الطوائف في حياة اللذة واللهو .

لقد أوجد الاندلسيون منصب الحاجب أو كبير الوزراء الذي يكون حلقة الوصل بين الوزراء وبين الخليفة وبذلك عرفت الاندلس تعدد الوزراء وتنوع اختصاصاتهم بل انها قد عرفت ما يسمى مجلس الوزراء .

وعرف الاندلسيون كما عرف الشرق من قبلهم استقلال القضاء وسلطانه واستعلاءه على المتقاضين مهما بلغت درجتهم وان كانت الاندلس قد عرفت نوعا من قضاء الخاصة . وقد أوجدوا في مجالس القضاء ما يسمى بالشهود العدول الذين يشبهون المحلفين في بعض الانظمة القضائية المعاصرة. وقد عرف الشرق أمثالهم الا أن الاندلسيين عرفوا بالدقة في اختيارهم (وانهم كانوا لا يقدمون أحدا للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره وتعقد له مجالس المذاكرة ويكون ذا مال في غالب الحال خوفا من أن يميل به الفقر الى الطمع فيبيع حقوق الدين . وقد أراد الحكم الربضي تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة فقالوا هو أهل ولكنه شديد الفقر ومن يكون في هذه الحال لا تأمنه على حقوق المسلمين . فسكت الحكم ولم ير منازعتهم وبقي مهموما فأشار عليه ولده عبد الرحمن أن يعطيه من المال ما يؤهله لتلك المنزلة ففعل)[1] .

(وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن وكان صاحبها قاضيا والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً الى الاسواق . وأعوانه معه وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الاعوان لأن الخبز عندهم معلوم الاوزان ، للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك للثمن وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيان به من السعر مع الحاذق في معرفة الاوزان وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدد له المحتسب في الورقة. ولا تكاد تخفى خيانته فان المحتسب يدس عليه صبيا أو جارية يبتاع أحدهم منه ثم يختبر الوزن المحتسب فإن وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس

---

١ ــ نفح الطيب جزء ٤ ص ٢٠١ و ٢٠٢

فلا تسأل عما يلقى)[1] • فليتنا نلقى من العناية بالتموين في أيام الازمات ما كان يلقاه أبناء الاندلس دائما •

ويظهر من هذا النص أن نظام الحسبة كان يشبه في اختصاصاته الى حد بعيد أنظمة البلديات الآن أو اختصاصات وزارة التموين بالاضافة الى حقه في الاثبات والتنفيذ فالمحتسب هو محقق المخالفة وهو القاضي الذي يفصل فيها وهو الذي ينفذ العقوبة • ونلمح هنا بوادر التسعير الاجباري وتقسيم المبيعات الى فئات لكلٍ منها سعر محدد فنحن أمام سابقة مبكرة للاقتصاد الموجه • وكان للاحتساب اختصاصات وأعمال تزيد عما تضمنه هذا النص فكان المحتسب وأعوانه يتفقدون النظافة ويحافظون على الصحة وكان الخباز مجبرا على أن يأتزر بإزار أبيض نظيف وكان العجان مجبرا على أن يحلق إبطيه مخافة أن يسيل العرق على العجين • وكان من حقهم مراقبة الابنية بحيث لا يسمحون أن تسيل من سطوحها مياه تؤذي المارة • وكان للمحتسبين حق تفتيش الكتاتيب حتى لا يفرط شيوخها في ضرب التلاميذ وايجاعهم ، وبالخلاصة فقد كانت الحسبة تقوم بكل ما تتطلبه قاعدة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر •

وكان للشرطة كذلك تنظيماتها المانعة • وقد أعطي بعض المتنفذين من أصحابها صلاحية القتل عند توجبه دون استئذان السلطان وكانت عينها حاضرة في كل مكان ساهرة على الامن (ان بلاد الاندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد" • وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واعيائهم في أمور التلصص الى أن يظهروا على المباني المشيدة ويفتحوا الاغلاق ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يطالبهم بعد ذلك • ولا تكاد في الاندلس تخلو من سماع : دار فلان دخلت البارحة وفلان ذبحه اللصوص على فراشه ، وهذا يرجع التكثير منه

١ــ النفح ج ١ ص ٢٠٣

والتقليل الى شدة الوالي ولينه وقد آل الحال عندهم الى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم وما أشبه ذلك)[1] .

وفي هذا النص دلالة على استعانة الشرطة بالعسس وتقسيم المدينة الى مناطق متعددة تسهل مراقبتها ، وقد رأينا المصابيح المعلقة بالليل تضيء ما بين الزاهرة وقرطبة والزهراء . ولا يخيفن آخر النص أحدا . فحيث تسود العناية بالامن وتقام التنظيمات للمحافظة عليه ، يشتد الخارجون على النظام في التفنن بالعبث والتمرد على الاحكام ، بل لعل الامر الثاني هو علة هذا التنظيم ولنا في بعض الدول المتقدمة شاهد قوي . ولعل مرد هذا الاخلال بالامن في الاندلس الى شدة العصبيات حيث تتدخل الجماعة كلها لمصلحة فرد منها أصاب أو أخطأ . وكان للاضطراب الخارجي أثره في زيادة هذا العبث وتشجيعه في الداخل والصلة وثيقة دائماً بين الاضطرابين الداخلي والخارجي فكلاهما يحمل طابع الاغارة على الآمنين بصورة فردية أو جماعية . ولعل صاحب النفح انما كان يحكي عن الاندلس في عهود الاضطراب والا فقد عرفت الاندلس زمناً من الامن والرخاء في عهد الداخل والناصر وفي عهود الازدهار في دولتي بني الاحمر وبني عباد . ومهما يكن فإن الذي يظهر من هذه التنظيمات أن الدولة لم تهمل واجباتها في حماية المجتمع بدليل قيام الفنادق في المرية وغيرها أي أن مثل هذه الحوادث لم تكن من الكثرة والشيوع بحيث تعيق حركة التجارة والتنقل . وقد استدعى ازدياد الصراع بين العرب والفرنجة ايجاد جيش قوي . وسلكت الفروسية التي كانت شائعة في أوروبا سبيلها الى الاندلس وما كانت الشجاعة والحمية والنجدة غريبة يوما عن أخلاق العرب وتعاليم الاسلام . والذي يظهر أن الفروسية لم تكن وقفا على العرب وحدهم بل كان ميدانها واسعاً بحيث شمل المولدين وقد عدّ صاحب نفح الطيب من الفرسان (ابن مردنيش والقائد أبا عبد الله بن قادوس)[1].

---

١ ـ نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٧

وكان للخلفاء والامراء وأبنائهم من الفروسية نصيب وافر فكانوا يقودون الجيوش ويباشرون القتال كما فعل الامير المنذر ومن بعده عبد الله ومحمد، وكان المنصور اذا غزا سار معه أربعون شاعرا يخلدون مآثره • ولا شك أن الداخل كان فارسا مقداما فاستطاع لذلك أن ينشيء ملكا حتى لقد اعتبره عدوه الخليفة أبو جعفر المنصور صقر قريش • وما أروع المثل الذي ضربه المعتمد بن عباد في قتال المرابطين •

هذا وقد دخلت في الجيش عناصر أجنبية ومرتزقة من قبل العهدالاموي ومن هنا كانت هزيمة عبد الرحمن الغافقي ومصرعه في بلاط الشهداء • وقد أنشأ الناصر جيشا من المماليك الصقالبة وكان حظ الاندلس منهم أحسن من حظ العباسيين من المماليك الاتراك فلم يثبوا الى الخلافة ولم يكونوا عنصر شغب وفتن ولكننا لا نشك في أنهم لم يكونوا متحمسين لخدمةالدولة التي يرتزقون تحت علمها فلم تتمكن الاندلس بجيشها المختلط من الثبات أمام الغزاة حينما تألب الغرب المسيحي عليها في صليبية أندلسية ولم توحد الشدائد الاندلس فانقسمت الى دويلات وأمارات متعادية ، وبذلك فقد كانت بحاجة دائما الى المدد يأتيها من المرابطين والموحدين • وعلى أيدي المرابطين توقف انهيار الاندلس في الزلاقة عام ١٠٨٦ ميلادية حينا من الزمن ولكنها وقعت بعدها فريسة بأيديهم وبأيدي الموحدين من بعدهم فنظر الاندلسيون الى هؤلاء نظرة كره واستنكار فقال الشاعر الاندلسي يهجو المرابطين :

ان المرابط باخل بنواله ... لكنه بعياله يتكرم
الوجه منه مخلق لقبيح ما ... يأتيه فهو من أجله يتلثم

ورب ضارة نافعة فخير للاندلسيين أن يرعوا الجمال تحت حماية المرابطين والموحدين على حد قول المعتمد من أن يرعوا الخنازير أو يبادوا بأيدي الغرب المتوحش •

ولم تقتصر الاندلس في حشرجتها المميتة على طلب النجدة من المغرب العربي وحده وانما استنجدت بمصر (فأنشأ لسان الدين بن الخطيب ــ رسالة ــ صدرت من الغني بالله صاحب الاندلس الى السلطان المنصور أحمد بن السلطان الناصر قلاون ومنها : الابواب التي تفتح لنصرها أبواب السماء وتستدر من آفاقها سحب النعماء ، أبواب السلطان الكبير الجليل الشهير الطاهر الظاهر الاوحد الاسعد الملك الناصر ــ مع اختصار الالقاب ــ محمد ابن قلاوون الصالحي جعل الله فسطاط دعوته معمودا بعمود الصبح ، من أمير المسلمين بالاندلس عبد الله الغني بالله الغالب به محمد بن يوسف بن اسماعيل ابن فرج بن نصر من دار ملك الاسلام بالاندلس حمراء غرناطة وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها ، حيث المصاف المعقود وثمن النفوس المنقود ونار الحرب ذات الوقود حيث الاسلام من عدوه كالشامة من جلد البعير والتمرة من أوسق العير)[1] .

وكان أبو البقاء الرندي بعيد الامل حين طلب النجدة في قصيدته المشهورة من الراكبين عتاق الخيل الذين كانت سنابك خيلهم تطأ البلقان ، من العثمانيين الذين أعادوا ملك فرنسا الى عرشه ولكنهم لم يتدخلوا لانقاذ الاسلام بالاندلس . ولم تمنع هذه الصرخات عن الاندلس مصيرها المحتوم ولم تنقذها النجدات من افريقيا (فحذف الاصلي والزائد وذهبت الصلة والعائد وباب التعجب طال وحال اليائس لا تخشى الانتقال وذهبت علامة الرفع وفقدت سلامة الجمع وامتنعت العجمة من الصرف وأمنت زيادتها من الحذف كما روى الحميري في روضة المعطار عن القاضي ابي المطرف ابن عميرة)[2] .

وكان هذا الجيش الذي لم يكتب له النصر في النهاية قد اقتبس الكثير من عادات أعدائه واتخذ أزياءهم فكانت (محاربتهم بالتراس والرماح

---

١ ــ نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٠ ــ ٣٠٦
٢ ــ صفة الجزيرة ص ٥١ و ص ٢٨٩

الطويلة للطعن ولا يعرفون الدبابيس ولا قسي العرب بل يعدون قسي الفرنج. وكثيرا ما تزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وكذلك أعلامهم وسروجهم)[1] . غير أن الاقتباس كان متبادلا بين الفريقين وكان المسلمون قد أجادوا استعمال النفّاث وهي آلة تشبه المدفع في أبسط أشكاله واستخدموه في حروب الصليبيين وأتقنه الاندلسيون وأخذه الاسبان عنهم وزادوا في تحسينه واتخذوه وسيلة فعالة لدك الحصون فكان هذا قوة كبيرة في انتصار الاسبان .

واستفادت الاندلس من موقعها البحري كشبه جزيرة تتصل بالاطلسي والمتوسط فعرف الاندلسيون ركوب البحر وحربه كما عرفوا حروب البر واشتهرت المريّة بأنها كانت مرسى للاسطول الاسلامي وكان فيها دار للصناعة.

ويظهر أن الاسطول كان مثار اعجاب من قبل الاندلسيين فقال يزيد بن عبد الله اللخمي الاشبيلي في وصف هذا الاسطول في حالة السلم :

ويا للجواري المنشآت وحسنها ظواهر بين الماء والجو عوّما
اذا نشرت في الجو أجنحة لها رأيت به روضا ونورا مكمّما

وقال ابن الحداد يصف هذا الاسطول في حالة الحرب والبأس :

ذات هدب من المجاذيف حاك هدب باك لدمعه اسعاد
حمم فوقها من البيض نار كل من أرسلت عليه رماد

---

١ ــ نفس المصدر السابق

بعض الخصائص الاجتماعية

«ظاهرة الحنين»

لقد كانت اللغة والدين كما رأينا رابطتين تشدان بالاندلس ومجتمعها الى الشرق المسلم وكان الى جانب هاتين الرابطتين روابط أخرى من صلات القربى والدم تمثلت جلية في ظاهرة الحنين التي رافقت الداخلين اليها من الشرق ومنذ وطئت أقدامهم أرض الاندلس فقال عبد الرحمن الداخل يحمل تحياته مع أول راجع الى موطنه في الشام :

أيها الراكب الميمم أرضي   أقر من بعضي السلام لبعضي

ان روحي كما علمت بأرض   وفؤادي ومالكيه بأرض

قدر البين بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وقال وقد هيجت حنينه الى الشرق نخلة رآها في الاندلس :

يانخل أنت غريبة مثلي   في الغرب نائية عن الاصل

ولو أنها تبكي اذن لبكت   ماء الفرات ومنبت النخل

لكنها ذهلت وأذهلني   بغضي بني العباس عن أهلي

وقد يتمثل الحنين لدى الشعراء المتأخرين في الاندلس بمظاهر مختلفة أهمها الشوق الى طيبة وزيارة البلد الحرام فقال بعض وشاحي الاندلس :

قوموا فقد طال ذا الجلوس ... وبادروا زورة الحبيب
تاقت الى طيبة النفوس ... لا عيش من دونها يطيب
لا حبذا دونها العروس ... والماء والشادن الربيب
وحبذا الرمل والقفار ... والعرب في تلكم الخيام
وأم غيلان ظللتني ... والايك والاثل والغمام

صار المقيمون في الاندلس يغبطون الظاعنين الى الحجاز والى مدينة الرسول بالذات :

يا راحلا يبغي زيارة طيبة ... نلت المنى بزيارة الاخيار
حي العقيق اذا وصلت وصف لنا ... وادي منى يا طيب الاخبار

ولنستمع الى صاحب نفح الطيب وهو يحدثنا عن علاقة كتابه بأهل الشام فيقول: (ولهذا الكتاب بالشام تعلق من وجوه عديدة أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام أبقى الله مآثرهم وثانيها أن الفاتحين للاندلس هم أهل الشام ذوو النجدة والشوكة والحمية وثالثها أن غالب أهل الاندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطنا مستألفا وحضرة جديدة • ورابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر والدوح والزهر والغوطة الفيحاء وهذه مناسبة قوية العرى) •

واذا كانت الروابط بين أبناء الامة العربية الواحدة قد فعلت فعلها في تكوين كتاب فلا غرابة بعدها أن يوحد الحنين بين فروع الناس في الاندلس وأصولهم في المشرق فلقد كان المجتمع الاندلسي شرقي الروح والعاطفة واللسان وكان الى ذلك مشتركا مع الشرق العربي في مأكله وملبسه وعاداته فقد علمهم زرياب الوافد من بلاط الرشيد (ضربا من تقصير الشعر وتسويته واستعمال المرتك « نوع من البودرة » وهو أول من اجتنى بقلة الهليون • ومما أخذه الناس بالاندلس عنه تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب

والفضة . واختياره سفر الادم « المشمعات » بتقديم الطعام فيهـا علـى الموائد الخشبية ، اذ الوبر يزول عن الاديم بأقل مسحة ، ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به)[1] .

وكان يعجبني شخصيا لو أن الاندلسيين عدّلوا ذوقهم في المرأة وفقا لما ذهب اليه زرياب في وصف المرأة المعتدلة التي أوحت اليه بأن يقول :

علقتهـــا ريحانـــة	هيفـاء عاطرة نضيرة
بين السمينة والهزيلة	والطويلـــة والقصيرة

وقلد الاندلسيون المشرقيين في التسري وفي العمران وزادوا عليهم في الاكثار من الحمامات بعد أن شغفتهم النظافة حبا . وكما كانت الحراقات تتهادى بالامين وجواريه ماخرة به وبهن ما بين الرصافة والجسر ، فقد كـان للعشاق المعاميد في أنهار الاندلس نزهات ونزهات ، حدّث بها الشاعر ابن سعيد وقد حنّ الى فردوسه المفقود بعد لجوئه الى مصر :

هذه مصر فأين المغـرب	مذ نأى عني دموعي تسكب
أين حمص أيـن أيامي بهـا	بعدهـا لم ألق شيئا يعجب
أين حسن النيل من نهر بها	أيـن نغمـات لديه تطرب
كم به من زورق قد حله	قمر سـاق وعـود يضرب

ولكنهم خالفوا الشرقيين في أشياء ، فتحرروا من لباس الرأس ومشوا في الطرقات حاسرين (سبور) . جاء في نفح الطيب (وأما زي الاندلـس فالغالب عليهم ترك العمائم ولا سيما في شرق الاندلس . ولقد رأيت عزيز ابن خطاب أكبر عالم بمرسية فقد خطب في تلك الجهة وهو حـاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره . وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهممن تراه بعمة في شرق أو غرب . وابن هود الذي ملك الاندلس في عصرنا رأيته

1 ـ نفح الطيب

في جميع أحواله وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الاحمر وكثيرا ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم . وأكثر أعوانهم من يمشي دون طيلسان الا أنه لا يضعه على رأسه منهم الا الاشياخ المعظمون وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا وخضرا والصفر مخصصة باليهود ولا سبيل ليهودي أن يتعمم البتة [1] . ولبس الاندلسيون البياض في الحزن معاكسة لشعار العباسيين فيه حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم الى أمر عجيب
لبستم في مآتمكم بياضا فجئتم منه في زي غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب

« وجعلوا للشهود العدول القلانس والرداء »[2] .

ومن محاسنهم أنهم تحرروا من بعض المفاسد الاجتماعية كالتسول (وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدورة التي تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية واذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه فلا تجد بالاندلس سائلا الا أن يكون ذا عذر) [3] .

ويلاحظ بأن مؤلف النفح يدور حول معنى كلمة التسول ولا يستعملها لعدم الحاجة اليها في الحديث عن مجتمع الاندلس .

وأما حال أهل الاندلس في فنون العلم فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس . والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة ومع هذا فليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم

---

١ و ٢ و ٣ ـ نفح الطيب

بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد فهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً « راتباً » فالعالم عندهم بارع لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه « العلم للعلم » وهذا يتفق مع حيوية الأندلسيين واندفاعهم •

وقد ضرب بعض ملوكهم ستاراً ملكياً دون الشعراء والناس فقال الشاعر يخاطبه :

فانظرونا نقتبس من نوركم انه من نور رب العالمين

ويذكرنا ابن زيدون بعادة التحرج عن ذكر النساء أو التصريح بأسمائهن في قوله وهو يخاطب الولادة :

ولا أسميك اجلالاً وتكرمة فقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

الى آخر ما هنالك من مظاهر وعادات يشدهم بعضها الى الشرق أحياناً ويبعدهم بعضها عنه أحيانا أخرى •

التبادل الحضاري بين المجتمع الأندلسي
والمجتمعات العربية والمعادية ومظاهره الأدبية

قدم العرب الى الاندلس بتراثهم الادبي الاصيل ففتحوا عيونهم على أفق رحب وطبيعة جديدة ولكنهم لم يذوبوا تماما في المحيط الجديد ولم تذهلهم المفاجأة فيتيهوا بعيدا عن تراثهم العربي العريق في حين أنهم لم يتمردوا في الوقت ذاته على مقتضى حياتهم الجديدة في اقليمهم الجديد وانما كانوا معها كالكائن الحي في تبادله المثمر ومؤالفته الدائمة مع الحياة، فكانوا يحاولون من جهتهم اخضاع المحيط الجديد الى الشروط التي يطيقون احتمالها بينما كان هذا المحيط بدوره يحاول أن يحد ما استطاع من تباينهم معه وتمردهم عليه • ولقد رأيناهم ينتشرون في البقاع التي تلائمهم من أرض الاندلس عربا كان هؤلاء القادمون أم بربرا ولكن الطبيعة والضرورات لا تلبث أن تقوم بدورها فتجمع بين الفاتحين بعنصريهم ثم تجمع بينهم وبين السكان الاصليين •

وكعادة العرب في كل بلد دخلوه : تفتحت لهم القلوب فاذا هي مؤمنة واستجابت لهم العقول فهي مستعربة وانعطفت اليهم الضمائر فاذا هي مسلمة وانطلقت بلغتهم الالسنة فاذا هي عربية مبينة •

ولقد حدث مثل هذا التجاوب مع العرب في مصر والعراق والشام والمغرب وان كانت القوميات المتراجعة في الاندلس وما حولها أكثر ضراوة

وأشد بطءاً في الاستجابة والاستعراب ولكن الشعب عادة لا يقاد الى الجنة بالسلاسل ، بل انه سرعان ما يستجيب للامر اذا رأى فيه مصلحته وسرعان ما يستجيب الى الدعوة ويدين بالعقيدة اذا هي تجاوبت مع مثله العليا وأمانيه في الحياة وهكذا فقد تحوّل العلوج الى مولّدين أو بقوا في رحاب الدولة الجديدة كمعاهدين ذميين ، الا من حقت عليهم كلمة ربك أو قضت وعورة مساكنهم في شعاب البيرنة أن تحرمهم من شرف العروبة والانتماء اليها .
وعلى يد هؤلاء توقف سير المدنية في اندفاعها المظفر نحو أوروبا ثم تم القضاء عليها بعد ذلك في الفردوس نفسه فعاد يبابا كما كان . الا أننا لم نعدم مع ذلك أثر الدم العربي في مزاج الاسبان أنفسهم . بل انني لأكاد أزعم أن طبيعة التمرد والاندفاع التي تدمغ شعوب البحر الابيض المتوسط والتي زادتها حمية الدم العربي في الاندلس فوراناً واندفاعا هي التي ما زالت تدفع الآن بأحفادهم في العالم الجديد الى الثورة والانتقاض دائما . فهناك في العالم الجديد ، وفي أمريكا اللاتينية بوجه خاص. حيث انتقل العنصر الاسباني وفي حرارة دمائه مدد من كرات الدم العربي البيضاء ، تسود الدساتير السياسية الصلبة وغير القابلة للتعديل والتي تبدو في صرامتها من بعض الوجوه وكأنها المذهب المالكي المحافظ الذي دان به أجدادنا في الاندلس فتثور عليها العزائم الشابة المشبعة بحب الثورة والانتقاض تماما كما كان يفعل المغامرون ممن أسسوا دويلات الطوائف .

ويشتد صراع الاندفاع ضد الروح المحافظة فتكثر الثورات في هذه البقعة من العالم . فلقد زال حكم العرب عن اسبانيا نفسها ولكن آثار الاندفاع العربي الاندلسي ما زالت تظهر بحكم الوراثة حتى في أحفاد الاحفاد . وكمثل أكثر وضوحا فقد بقيت في اللغات الاسبانية والايطالية والفرنسية رواسب من لغة العرب. ولم يتأخر الاسبانيون الا حين قضوا على البقية الباقية من الفاعلية العربية في بلادهم . ومع ذلك فقد كانت اسبانيا من أوائل الدول التي انساحت نحو الشرق لتثأر من الفتح العربي الاسلامي في الغرب وفي نفوس أبنائها روح المغامرة التي بثها العرب فيهم حين كانوا

يحتلون بلادهم وفي الوقت نفسه فانها الدولة الاوروبية غير المعترفة باسرائيل تأثرا عاطفيا ببقايا الدماء العربية التي ما زالت تسري في عروق الاسبان •

أما النازحون وأما العائدون من الفردوس الى المغرب فقد أعادوا اليه جزءاً من مدنية الاندلس وبثوا فيه قوة من عزائم الاندلسيين ثم زينوه بآثارهم في المهارة والاتقان • جاء في نفح الطيب : (ان حاضرة مراكش هي بغداد المغرب وأكثر مصايفها ومبانيها الجليلة وبساتينها انما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن • وكانوا يجلبون اليها متاع الاندلس من جزيرتهم • ومدينة تونس بافريقيا قد انتقلت اليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان افريقيا الآن أبي زكريا بن أبي يحيى بن أبي حفص)[1] •

ولا أشك مطلقا بأن مدنية المغرب قد ازدادت عمقا واتساعا بعودة أفواج اللاجئين اليها من الجزيرة الخضراء •

واذا كانت هذه هي آثار المجتمع الاندلسي ، واذا كانت هذه هي فاعلية الاندلسيين في أعدائهم وقاهريهم وفي البلاد التي نزحوا اليها مقهورين فلا شك عندي أن هذه الآثار كانت أقوى سلطانا وأشد وضوحا في عهد المد العربي في الاندلس حيث حمل الفاتحون معهم رسالة الشرق وأدبه وطبعوا الاندلس بالطابع الحضاري لمجتمعهم العربي الاول الذي آل اليه أمر الحضارة في الشرق كله •

ثم زادت الرحلات والاسفار من الغرب الى الشرق وبالعكس من متانة الصلات وأمدت الجزيرة بموجات من حضارة الشرق وروحه فمن الشرقيين من رحل يطلب الاخلاق وعلم السياسة كالطرطوشي ومنهم من ذهب في طلب الادب كالشريشي وابن عبد ربه ومنهم من رحل في طلب الفلسفة كإبن زهر •

---

١ ـ نفح الطيب ج ٤ ص ١٤٩

وتوالت الرحلات ، فأهالي الاندلس يرحلون الى الشرق حجاجا أو طلاب علم . وأهالي الشرق العربي يرحلون الى الاندلس في طلب الحظوة والجاه . وهكذا انتشر في الاندلس أدب القالي ومبتكرات زرياب . وحفل الشرق بتصوف ابن عربي ومؤلفات ابن عبد ربه وابن رشد وابن طفيل والامام ابن حزم .

وليس عجيبا بعد هذا كله أن يكون الادب الاندلسي في الكثير من نواحيه صورة صادقة عن الادب العربي في الشرق ونسخة ثانية تختلف في بعض التفاصيل .

فالقافية الموحدة في الشعر العربي وأوزان العروض الستة عشر كانت قوام الشعر التقليدي في الاندلس ومثلها أكثر المعاني والاساليب حتى كان من دواعي فخر الاندلسيين أن يكون ابن هانىء متنبي المغرب وابن زيدون بحتريه .

ونحن اذا استعدنا أشهر قصيدة لابن زيدون — أضحى التنائي بديلا من تدانينا — كنا أمام جرس معتاد مألوف :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهموا	حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
ان الزمان الذي ما زال يضحكنا	أنسا بقربهموا قد عاد يبكينا

ثم نجد أنفسنا أمام مثل من شعر البحتري ، وبصورة أكثر انطباقا فان في القصيدة نفسا من ابن الرومي الى مرونة عز نظيرها بين أشعار المشرقيين.
وفي قصيدة ابن هانىء التي يقول في مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد	وكأنما أنصارك الانصار

شيء غير قليل من تهاويل المتنبي ومبالغاته ولأمر ما سمي ابن هانىء بمتنبي المغرب .

وكانوا يقدمون للمديح وغيره من الاغراض بشيء من النسيب كما فعل ابن زيدون في مدح الوليد بن جهور حيث ابتدأ قصيدته في مدحه قائلا:

ما للمدام تديرها عيناك ... فيميل من سكر الصبا عطفاك
هلا مزجت لعاشقيك سلافها ... ببرود ظلمك أو بعذب لماك

واستمدوا الكثير من المعاني التي شاعت في المشرق من قبل حتى لنستطيع في كثير من الاحيان أن نرد معاني الاندلسيين الى مصادرها في الشرق وان نحس بينها وبين شعر المشرقيين بتجاوب لا يمكن حدوثه عرَضا كما في المقارنات التالية :

قال ابن زيدون متغزلا بالولادة :

لسنا نسميك اجلالا وتكرمة ... وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

وكان المتنبي قد قال في رثاء خولة اخت سيف الدولة :

أجلّ قدرك أن تسمي مؤبنة ... ومن يصفك فقد سماك للعرب

وقال أبو وهب العباسي القرطبي في الزهد :

أنا في حالتي التي قد تراني ... ان تأملت أحسن الناس حالا
منزلي حيث شئت من مستقر ا ... الارض أسقى من المياه زلالا
ليس لي كسوة أخاف عليها ... من مغير ولن ترى لي مالا
أجعل الساعد اليمين وسادي ... ثم أثني اذا انقلبت الشمالا

وليس هذا المعنى غريبا عن قول ابي الشمقمق :

وما خفت الاباق على عبيدي وما خفت المغير على دوابي
ولا حاسبت يوما قهرمانـا محاسبة فأغلط في حسابـي
فمنزلي الفضاء وسقف بيتي سمـاء الله أو قطع السحاب

واذا ما عاد ابن زيدون يخاطبنا قائلا :

سرى ينافحه نيلوفر عبـق وسنان نبه منه الصبح أحداقا

فان البحتري قد سبقه فقال :

وقد نبه النوروز في غسق الدجى أوائل ورد كنّ بالامس نوّما

وقد توافق البحتري وابن زيدون للمرة الثالثة في البيتين التاليين :

رأيناك من أعلى المصلى كأنمـا تطلع من محراب داوود يوسف

وهو لابن زيدون . أما البيت التالي فهو قول البحتري في مدح المتوكل:

ذكروا بطلعتك النبـي فهللوا لما طلعت على الصفوف وكبروا

وقد مر بنا سابقا ما يدل على التشابه بين ابن خفاجة وبـين المعري في وصفهما للوعاظ والزهّاد .

وقد وقع الاندلسيون مع المشرقيين في أخطاء الذوق التي لا نقرهم عليها فقال القاضي أبو حفص القرطبي :

لهـا ردف تعلـق في لطيف وذاك الردف لي ولها ظلوم
يعذبني اذا فكـرت فيـه ويتعبهـا اذا راحت تقـوم

فطالعنا القرطبي بنمط أندلسي جديد من عزة الميلاء والثريا بنت علي .

وشعر الاندلسيون أمام المحبوب شعور اخوانهم من عرب المشرق بالذلة والاستخذاء . فقال بحتري المغرب :

ملك القلوب بحسنه فلها اذا أمر انقياد

كما طرقوا سائر الابواب التي طرقها عرب المشرق من غزل ومدح وفخر وهجاء ومجون . وعمدوا مثلهم الى التضمين والتصدير فقال ابن جزّي مصدّرا أعجاز قصيدة امرىء القيس :

أقول لعزمي أو لصالح أعمالي ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالي
أما واعظي شيب سما فوق لمتي سموّ حباب الماء حا لا على حال

بل انهم زادوا فحاكوا شعراء عصر الانحطاط في نظمهم للاحاجي والالغاز فقال ابن الجياب ملغزا :

ما اسم لشيء مرتقي في مغرب ومشرق
اذا حذفت فاءه كان لك الذي بقي « فلك »

ولكن من الانصاف أن نشير الى أنهم لم يصلوا في اسفافهم هذا الى حد الاكثار والابتذال كما فعل المشرقيون اذ أمدتهم الطبيعة من المعاني بما صرفهم نسبيا عن التلاعب بالالفاظ والخضوع لضرورات البديع كما أنهم لم يفحشوا في مجونهم إفحاش الشعراء العباسيين في بغداد أو يتهالكوا في ملذاتهم تهالك النواسي والخليع ومطيع بن اياس ، اذ كانت مصادر الافساد من ثراء وجوار وخمور وغلمان أقل في الاندلس منها في المشرق الذي عج بالسبايا واتسعت عليه مصادر الثروة . وكذلك فقد احتذى الاندلسيون أثر المشرق في نثرهم فكتبوا في الشعر والشعراء وأخبار المتقدمين . وعالجوا بعض الموضوعات . ولكننا لا نستطيع أن نجد فيهم رواة في شهرة خلف

الاحمر وحماد الراوية وكان مصدر الرواية قريبا الى جوارهما في البادية • ولم تبلغ الامالي ولا العقد الفريد مبلغ الاغاني في بابهما • على أن ابن حزم قد أبدع في طوق الحمامة عن الالفة والألاّف •

ولهم محاولات في تقليد المقامات • وفي الرسالة الهزلية لابن زيدون نمط من هذا القبيل • أما لسان الدين بن الخطيب فله مقامة وصف فيها بلاد الاندلس ومنها :

قلت : فمدينة سبتة • قال : عروس المجلى وثنية الصباح الاجلى • تبرجت تبرج العقيلة ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقلية • وذلك كما روى لنا صاحب نفح الطيب في الجزء الثامن من كتابه •

وان جعل المدن تنطق وتتكلم على هذا النسق هو من مبتكرات الاندلسيين اذ كانت مدنهم أطلالا حية تعج بالحركة حقا •

ولكن واحدا من الاندلسيين لم يكن يجرؤ بأن يدعي مجاراة بديع الزمان في مقاماته • ويلاحظ بأنهم كانوا أكثر تحررا من المشرقيين من قيود السجع المتكلف وأكثر ميلا الى الاسترسال في معظم آثارهم النثرية • ولابن الخطيب نفسه رسالة نثرية اسمها نفاضة الجراب ، وصف فيها الاماكن بكلام جزل مرسل غير مسجوع ومن ذلك قوله حين أجرى ذكر مكناسة الزيتون : (وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد رافلة في حلل الدوح مبتسمة عن شنب المياه العذبة سافرة عن أجمل المراد)[1] •

وقد افتتح النثر في الاندلس معاني جديدة ونحا مناحي هي أقرب الى الابتكار في وصف الرياض وفي المكاتبات السياسية ولا سيما تلك التي تدعو الى استنهاض الهمم وتستنجد بالمسلمين القاعدين بعيدا عن انقاذ الاندلس •

---

١ ـ نفح الطيب ج ٨ ص ٣١٦

ولكننا لا نستطيع الا أن نقول أنهم قصروا في مجاراة الشرق وتقليده نثرا وشعرا • فلم يكن فيهم شاعر كالمتنبي أو ابن الرومي أو المعري • بل ان أكبر متصوفيهم وهو ابن عربي ليرضى بأن يكون شارحا لتائية عمر بن الفارض الذي يطمئنه على أن كتاب ابن عربي أي الفتوحات المكية هو شرح لتائية ابن الفارض • ولم ينجب الاندلسيون مؤلفا مثل أبي الفرج الاصفهاني ولا كاتبا مثل الجاحظ ولا محاضرا كالتوحيدي لأنهم كانوا في هذا كله بمنزلة التابع من المتبوع •

واذا كان الشرق هو القدوة ومصدر الايحاء بالنسبة لشعر الاندلس ونثرها التقليديين فمن الطبيعي أن يكون قياد هذا النوع من الادب بيد المواطنين من عرب المشرق يتأثرون بصحاريه ولياليه وظبائه ويأتون بمثل ما قاله علي بن الجهم :

عيون المهى بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أو يرددون مع أبي الطيب المتنبي قوله :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها   في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها   فأرتني القمرين في وقت معا

أما ميدان السبق بالنسبة للاندلسيين فقد كان في الشعر والنثر اللذين نمليهما طبيعة الموطن الجديد ومظاهره الحضارية الخاصة التي تتلاءم مع طبيعة أرضه ومع اختلاف جوه عن أجواء المشرق،والفكر كالانسان نفسه هو ابن البيئة ومنحة الاقليم • فهناك في الفردوس البعيد الى جانب المهى بعيونها الحالكة السواد وجدائلها المضفورة بليالي الصحراء وأريجها الذي يستجمع عطور الشرق ويستقطرها ، ينعم المترفون بهذه المغريات التي يحنون اليها في فردوسهم ويمتعون الطرف الى جانبها بعرائس الخلود وهي تميس في غدائرها الذهبية وبحوريات البحر وهن يخرجن منه ثم يتحدينه بعيونهن الصافية الزرقاء •

وهناك في الاندلس لا تكتفي الظباء بأن ترعى الخزامى بين أشجار النقى • ولكن جآذر الاندلس يخطرن بين الورد ويجسن خلال الرياض ويقطفن من نيلوفر الحقل وبنفسجه •

نعم هناك في الاندلس استطاع أجدادنا أن يحملوا ذميا كابراهيم بن سهل الاسرائيلي على أن يعتنق الاسلام بلا اكراه ثم يقول بعد اسلامه :

تركت هوى موسى لدين محمد ولولا هدى الرحمن ما كنت أهتدي
وما عن قلىً مني تركت وانما شريعة موسى عطلت بمحمد

وأعوذ بالرحمن منه ان كان تقيا فلقد كان يقصد من قوله التورية بانتقال هواه من غلام اسمه موسى الى غلام اسمه محمد ، في حين أن بنات قومه وأخواتهن من كواعب القوط والفاندال والفرنجيات قد عبثن بقلوب الالوف من مواطنيهم الوافدين الى الاندلس فتساقط عربها صرعى بسهام كيوبيد وهم ينشدون مع الشاعر فؤاد الخطيب :

ولعل سر الامر اسبانية جعلته يعشق في الهوى الاسبانا

فضفر الشعراء هناك جدائل عرائس الاحلام من أشعة الشمس ثم وصفوها لنا قائلين :

يعيبونها عندي بشقرة شعرها فقلت لهم هذا الذي زانها عندي

وما عرف الشرقيون قبلهم الا سواد الشعر في مثل قول امرىء القيس:

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

على الرغم من أنهم قد أسروا الكثيرات من شقراوات الروم وذوات العيون الزرقاء منهن ولولا العيون الزرق في الاندلس ما تسنى لشاعر كابن خفاجة أن يقول في التشبيه والوصف :

لله نهـر سـال في بطحـاء أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطفـاً مثل السوار كأنـه والزهر يكنفه مجـر سماء
وغدت تحف بـه الغصون كأنها هدب يحف بمقلـة زرقـاء

وما أبعد الشبه بين زرقة النهر وسواد الحور لولا أننا هنا مع الشعراء الاندلسيين بحيث يمكننا استخلاص هذا الشبه من وحدة اللونـين : لون العيون الزرقاء وصفاء المياه الدافقة الزرقاء . وهناك في الاندلس مضى ابن حزم يبشر بمذهبه في التفسير الى أن عادت الى أحلامه صور الجواري اللواتي رافقن صباه في بيت أبيه فلم ينزل في غزله بهن عن مستواه كفقيه تقي ولكنه تغزل بهن من مكانه اللائق وكأنما هـو يتغزل بواحدة من ملائكة السمـاء لو كان التأنيث يعتري الملائكة . ولنستمع اليه يقول :

أمن عالم الاملاك أنت انسي اين لي فقد أزرى بتمييزي العي
أرى هيئـة أنسيـة غـير أنـه اذا أعمل التفكير فالجرم علوي
تبارك من سوى مذاهب خلقه على أنك النور الانيق الطبيعي

ثم لم يستطع ابن حزم أن يتحرر من الازدواج حتى تخلى عن فقهه فترة يؤلف فيها كتابه « طوق الحمامة في الالفة والالاف » .

وأراد ابن زيدون أن يجتمع بالولادة فلم يبعدا بين كثبان الرمال كما كانت تفعل بثينة حين ترثي لجميل فتلتقي به ، ولكن الولادة والشاعر مشيا معا ليظفرا بما قال عنه ابن زيدون :

نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتـى مال أعناقا

وان للزهر كثرته في مجتمعات الاندلس ومنتزهاتـه في حـين كانت الاقحوانة الواحدة تلوح للعذري في الصحراء فيقصد اليها من مكان بعيد. ومن هنا كان للزهر وجوده في أقوال الشعراء الاندلسيين وكان له الهامه في

تشبيهاتهم فهو عندهم من ضرورات الحياة ، لا من كمالياتها فحسب . فإن أرادوا تعاطي الراح فلم يكن ذلك يجري في الحان حيث نام النابغة الجعدي وأغفى أبو نواس ولكنهم كانوا يذهبون لارتشافها بعيدا يراقبون النهــر ويفترشون الزهــر :

ويوم لدى النبتي في شاطىء النهر تدار علينا الراح في فتية زُهــر
وليس لنا فرش سوى يانع الزهــر يدور بها عذب اللمى أهيف الخصر
بفيه من الثغــر الشنيب ظــام

ويوم بجوفي الرصافة مبهــج مررنا بروض الاقحوان المدبَّج
وقابلنا فيه نسيم البنفســج ولاح لنا ورد كخد مضــرج
نــراه أمــام النور وهــو إمــام

ولا يظنن أحد أن هذا الزهر الكثير المتنوع كان مجرد هدايا رشقتها الطبيعة وأنبتتها الرياض ! انني أرجح أنهم كانوا يعتنون بإنشاء الحدائــق وتنسيق المتنزهات ولربما كانت للورد لغة يتهامس بها العشاق والا فلمــاذا وطىء الحبيب النرجس ولماذا قال له محبه :

يا واطىء النرجس ما تستحي أن تطــأ الاعــين بالارجــل

فهل كان هذا الحبيب يعني حينما وطىء النرجس أنه لن يواصل عاشقه ولو تربت عينه فداس على عيون النرجس على طريقة التعبير الصامت !.
ووردة أبي عامر المنصور التي قال فيها صاعد البغدادي :

أتتــك أبــا عامــر وردة يذكّرك المسك أنفاسهــا
كعذراء أبصرهــا مبصــر فغطت بأكمامهــا راسها

وأقسم بأن هذه الوردة لو تجسدت عذراء حقا لما أتت بأرشق من هذه

الحركة ولا أروع .

وهذا الاعجاب بالزهر جعل منه عند الاندلسيين موحيا ، فليست زهرات المجتمع عندنا مصدر وحي والهام لا منازع لهن ولكن لزهرات الحقـل وحيهـا والهامها عندهم .

وأكثر الاندلسيون من وصف الاثمار ذات النكهة والاريج كالنارنـج والسفرجل والتفاح فكانوا يتهادونها ويضعون مع الهدية رقعة فيها وصفها ومن هذا القبيل ما قاله ابن زيدون في تفاح أهداه الى المعتضد :

جادتـك جامـدة المـدام   فخـذ عليها ذوبهـا

وأرفق عبد الملك بن جهور وزير عبد الرحمن الناصر رقعة مع نرجس أهداه اليه وفيهـا :

قد بعثنا اليـك بالنرجس الغض   حكـى لون عاشـق معمود
فيـه ريح الحبيب عند التلاقي   واصفرار المحب عنـد الصدود

ومن قول أبي جعفر بن عثمان المصحفي في سفرجله :

لها ريح محبوب وقسوة قلبه   ولون محب حلة السقم مكتسي
فصفرتها من صفرتـي مستعارة   وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنسي

ولعل الزهر بما فيه من معاني ورموز هو الذي فتح عيون الاندلسيين على الوصف جملة حتى بالغوا فيه فوصفوا فـرخ الحمـام والاسطرلاب والتماثيل ، وزاد ابن شهيد عليهم فوصف زنبيلا ملآن خرشفا فأسفّ وقال :

هل أبصرت عيناك يا خليلي   قنافذا تبـاع في زنبيـل
من خرشف معتمد جليـل   من إبَر تنفذ جلد الفيـل

وكان الشعراء يبتكرون مواضيع شعرهم كما كان الفقهاء يفترضون المستحيلات ليجدوا لها حلا وكان هذا يجري بينهم بسبيل قطع الوقت في المحافل والسهرات حتى لقد افتخر (المقري) فقال وهل فيكم من حضر مع عدو له جاحد لما فعل معه من الخير وأمامهما زجاجة سوداء فيها خمر فقال له الحسود المذكور ان كنت شاعرا فقل في هذه فقال ارتجالا وهو ابن مجبر:

سأشكو الى الندمان أمر زجاجة كقلب حسود جاحد يد منعم
تصب بها شمس المُدامة بيننا تردت بثوب حالك اللون أسحم
وتجحد أنوار الحميّا بلونها فتغرب في جنح من الليل مظلم

ولن أتحدث هنا عن الموشحات وابتكارها من قبل الاندلسيين فهذا حديث يصلح وحده ليكون موضوعا لكتاب مستقل •

واذا كان وصف الوردة والروض والخمر انما يمثل التفاعل مع الجانب المشرق السهل من الحياة فإن الاندلسيين لم يقصّروا في التفاعل مع الحياة القاسية والاكتواء بجحيم مصائبها فقد زهد بعضهم وتصوف البعض الاخر وكان لهم مع الحياة الحرجة القاتمة اتصال دائم فمن بعدهم عن الحجاز ومنابت أصولهم في الشرق استمدوا مدح الرسول والحنين الى طيبة وسبقوا المشرقيين اليه • ومن نثر ابن جيان في رسالة كتب بها من الاندلس الى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم ومنها :

السلام عليك يا محمد ! السلام عليك يا أحمد ! السلام عليك يا أبا القاسم ! سلام من يمد اليك يد الغريق ويرجو الانقاذ ببركتك من نار الحريق ويتطلع أسفا ويتنفس صُعَدا كلما ازدلف اليك فريق •

وقد استرسل الاندلسيون فختموا قصائدهم في الاغراض الاخرى بالصلاة على النبي كما فعل ابن زمرك حينما أنهى قصيدته التي أنشدها على لحد ابن الاحمر بالبيتين التاليين :

عليك سلام مثل ذكـرك عاطر يفض ختام المسك عن تربك الندي
وصلى على المختار من آل هاشم صلاة بها نرجو الشفاعة في غد

وقد أسلمهم هذا الغرض الشعري الى مدح الصحابة كما فعل ابن جابر في قصيدته التي يقول فيها عن الصديق :

فمنهم أبو بكر خليفتـه الذي له الفضل والتقديم في كل مشهد
وصدّيق هادي الخلق والمؤثر الذي لانفاقه للمال في الله قد هـدي

ولابن جابر قصيدة ثانية في التنويه بسور القرآن •

ومن حياة المآسي التي عانتها الاندلس خاصة انبعث شعر المجتمـع اللاجىء المرتعد وهو يشكو الضيق ويطلب النجدة ويندب أيام العز حتى تـكوّن من هذا الشعر مأساة موجعة تبعث في النفوس عواطف اليـأس وتحرك دوافع الثأر وقلما نسمع في غير شعر الاندلس بما يمكن أن يسمى بمراثي البلاد • ومن هذا النوع قصيدة ابن عبدون وهي تمثل تطور وصف الاطلال ومطالع القصائد في الادب الاندلسي ومنها :

الدهر يفجع بعد العـين بالاثر فما البكاء على الاشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك معـذرة عن نومة بين ناب الليث والظفـر
فالدهر حرب وان أبدى مسالمة والسود والبيض مثل البيض والسمر

وللذكرى والمقارنة فإن فيصل بن الحسين رحمه الله قد خرج من دمشق وهو يتمثل بالبيت السائر :

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الاسـد

وبعد أن كان المعتضد الاب ينشد وهو بجزل ظاهر :

هذي السعادة قـد قامت على قدم وقد جلست لها في مجلس الكـرم
فإن أردت الهي بالورى حسَنا فملـّكني زمام العرب والعجـم

صار ابنه المعتمد يشكو وقد عضه القيد في ذات يوم فيقول :

تعطّف في ساقي تعطف أرقــم يساورها عضاً بأنيـاب ضيغم

والمعتمد هو الملك الذي قال إثر هزيمته أمام المرابطين :

لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع على فمي السم النقيع
ان يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطباع أيُسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم أن لا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشى شيء دفوع
ما سرت قط الى القتال وكان من أملي الرجوع
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلي والخضوع

ولما مات المعتمد في أسره جعل الشعراء الاندلسيون من يومه مأتما للملك الضائع في الاندلس وقال لسان الدين بن الخطيب وقد زار قبر المعتمد :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات
لمَ لا أزورك يا أنقى الملوك يدا ويا سراج الليالي المدلهمات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علاً فأنت سلطان أحياء وأموات

وقد شكت بقايا الاندلسيين في مصر والمغرب من مرارة الغربة وحنت الى فردوسها المفقود فقال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العبسي وقد ورد الديار المصرية :

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى ... ما بينها وجها لمـن أدريـه
عودي على بدئي ضلالا بينهـم ... حتى كأني من بقايـا التيـه
ويح الغريب توحشت ألفاظـه ... في عالم ليسـوا لـه بشبيـه
ان عاد لي وطني اعترفت بحقه ... ان التغرب ضاع عمري فيـه

وكانت قصيدة الختام في حياة الاندلس وأدب الاندلس قول أبي البقاء الرندي وهو يندب سقوط الاندلس :

لكل شيء اذا ما تم نقصان ... فلا يغرّ بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمـان
وهذه الارض لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يا غافلا وله في الدهر موعظة ... ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحـا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
فجائع الدهر أنواع منوعـة ... وللزمـان مسرات وأحـزان
وللحوادث سلوان يسهّلهـا ... وما لمـا حل بالاسلام سلوان

خاتمة

وبعد فهذه هي الحياة الاجتماعية في الاندلس كما عاشها الاندلسيون بأدبهم العملي الفاعل ثم عادوا فصوروها في أدبهم المكتوب شعرا ونثرا وليس لي في ابرازها الا فضل العرض والانتخاب والتعليق ، فاذا بدت هذه العصور مظلمة أو مشرقة فإن الفضل أو التبعة انما تقع لها أو عليها فلم أكن في بحثي عنها الا ذلك الصوت الذي ينطلق مع المناظر والفصول على الشاشة الناطقة يشرح ويعلق ويتحدث بينما تتعلق عيون النظارة بما يتتابع أمامها من مشاهد وأحداث حتى اذا كانت هذه المشاهد معبرة أخاذة حكموا بانسجامها مع صوت المعلق عليها أو عبروا عن مشاعرهم نحوها هازئين بأن ما سمعوه لم يكن أكثر من جعجعة فارغة أو غبار لا معركة تحته .

ولقد كانت المشاهد التي استعرضناها من تاريخ الاندلس وأدب الاندلس مشاهد متغيرة صاخبة تزخر بالضجة والحيوية ولكنها سطحية ينقصها العمق غالبا وقل ما يظهر العمق في مجتمع ينقصه الاستقرار والهدوء اذ كان المجتمع الاندلسي بعاداته وتقاليده ونزعاته وآدابه ، وفي تاريخه الذي ضم هذه المظاهر جميعا في اطار الزمن أشبه في نظري بموسيقى الجاز فيها الصخب وفيها الكثرة والتنوع ولكن يعوزها العمق والنفاذ .

لقد اتصف المجتمع الاندلسي بالشدة والاندفاع ولكنه لم يعد في ذلك

أحكام الوراثة وقانون الانتخاب : ولقد فتحنا نحن العرب بشهادة غوستاف
لوبون في كتابه تاريخ الحضارة العربية Histoire de le civilisation arabe
في ثمانين سنة ما لم يفتحه الرومان في ثمانية قرون وشهد جيلنا في شطـــر
من حياته وشهد آباؤنا قبلنا عهود غفلة وسكون لم تنعم بمثلها قبائل الزنج
على ضفاف الكونغو • وها نحن نعود الى الثورة والانطلاق بقوة تسبق
عجلات الزمن ، ولقد عشنا في تاريخنا الطويل أدوارا علونا فيها ذروة المثالية
ولكن عصفت بنا أثناءها مع الاسف شر المساوىء الفردية والانهزامية فعرفنا
غيرية أبي بكر وأنانية مسيلمة الكذاب وكنا في الحالين أشد الناس محافظة
وأكثرهم تمردا في الوقت نفسه • وشهدنا في تاريخنا ثورة الاسلام على القيم
الفاسدة والاوضاع المنحلة ولكننا شهدنا معها ثورة مناوئة محافظة شنهـــا
أبو جهل وأمية بن خلف واضرابهما على قيم الاسلام ومبتكراته • ولقـــد
عرف العالم مثل هذا الاندفاع والتنافر الصاخب في شعوب البحر الابيض
ومن تحدر منهم وسيظل هذا التناقض فيهم ما عاشوا على شواطىء المتوسط •
ولقد كان من المأمول أن يكتب عرب الاندلس في بيئتهم الجديدة تاريخـــا
يختلف عن تاريخ اخوتهم من عرب المشرق ولكن روابط الدماء والقربى ظلت
تشدهم اليه ثم لم تكن البيئة الغربية الجديدة بالنسبة لهم أكثر من تربـــة
مماثلة يشدها الى الشرق تقارب الاقليم والمناخ فهي أقرب اليه موقعا ومناخا
من أي قطر أوروبي آخر • ثم قضت وحدة اللغة والدين والقـــدر التاريخي
المشترك بأن توجد بين الشرق ومغربه روابط وأواصر تتضاءل أمامها ثانويات
الفوارق ، ومن العبث أن تتلمس الفروق بين مجتمعات تضمها وحدة اللغـــة
والدين وان تباعدت أقطارها ومساكنها بل لقد حاول المستعمر في سوريـــة
العربية بالذات تقسيم البلاد الى دويلات صغيرة تتوازعها المذاهب فقضت
وحدة اللغة واشتراكنا جميعا في وحدة النظام العام على بواكير آماله قبل أن
تثمر • ولقد كانت هذه الوحدة أكثر ظهورا بين دويلات الاندلس فلم نفرد
كلا منها من بحثنا بحديث خاص ونحن لن نستطيع ولو أردنا ذلك • وكانت
أواصر الوحدة كذلك قوية ما بين الاندلس وبلاد المشرق فكلاهما عربيـــة

مسلمة تستمد خصائصها الفردية والقومية من العروبة وتقتبس معتقداتها وعاداتها ونظمها العامة من مبادىء الاسلام . يستوي في ذلك النصارى والمسلمون ما تكلموا العربية وأظلتهم وحدة التاريخ فنحن كما قال شاعرنا البستاني :

كلنا مسلمون في مذهب الغرب عداة منقوضة الميثاق

فلم ينفرد الاندلسيون عن مواطنيهم من عرب المشرق ومستعربيه بل ظهرت فيهم وبصورة أشد نزعة الاندفاع تجديدا وتقليدا فعرفوا بتأييدهم المندفع لمذهب مالك بن أنس وتقيدهم بمذاهب السماع والنقل وضيقهم بالفلسفة وكتب الفلاسفة ولكن هذا الاندفاع المحافظ لم يمنعهم من أن يستأثروا دون العروبة كلها بأشهر فيلسوفين عربيين ابن رشد وابن طفيل وأقبل الاندلسيون على الثورة والتجديد بالاندفاع نفسه فعرفنا من ثائراتهم الولادة بنت المستكفي ونزهون القلاعية ومن ثائريهم الداخل ومؤسسي دويلات الطوائف ، وجاء زرياب وجواريه من المشرق فثار بهم على الكثير من تقاليد الاندلس وعاداتها ، ولم تسع الارض عباس بن فرناس فحاول الطيران في الجو ، وكان اندفاعهم كذلك شديدا في حياة اللهو والمجون ، ولقد خطوا باختراع الموشحات خطوة بالشعر والغناء لم يسبقهم اليها المشرق .

لقد عرفت الاندلس اذن الصخب في كل شيء ، عرفته في تزمت الفقهاء الشديد وفي مجون العابثين المسرف ، ولقد أسرف البعض من أهلها في شرب الخمر وكسر ابن جهور دنان الخمر ! أما أنهم لم يعرفوا العمق والنفاذ ولم يبلغوا في شعرهم وأدبهم مبلغ أهل المشرق فذلك راجع الى رضاهم منه بمنزلة المحتذي والمقلد . يضاف الى هذا كله الفلسفات العميقة التي كونت روحانية المشرق فلقد كان أقرب منهم الى اليونان وألصق بفلسفة الهند وأقرب الى حكمة الصين وهيهات وان حاولوا مضاهاته أن تضارع الصورة الاصل .

هذه الصلة بين عرب المشرق والمغرب هي التي حدت بي في كثير من الاحيان الى المقارنة بين المغربين أو المشرقين فكلا اللفظتين تضم الشرق والغرب معا ولقد حدت بي هذه الصلة نفسها الى الحديث عن الشرق في معرض الحديث عن الغرب وبالعكس اذ كانا من بعضهما بمنزلة البدء من الختام والمنبع من المصب ومن الخطل أن نضع السدود في مجرى النهر والا توقف عن الجريان، على أننا لن نخرج من حديثنا عن الاندلس بدون فائدة تذكر ، فلقد كانت الاندلس في سقوطها مجال عبرة وعظة ولكن العبرة الاكثر اشراقا في تاريخها انما تظهر في دوام الحكم العربي فيها قريبا من سبعة قرون كما تظهر العبرة الاهم في أدبها جلية في وحدة الصلة بين مغرب الشمس ومشرقها في ظلال الاشتراك الحتمي في التاريخ والاصل واللغة والدين والآلام والآمال .

واذا كانت الاندلس في عصر الحصان والبعير صورة عن العراق والشام وجزءا من الوطن العربي المسلم فما أوثق الصلة ونحن في عصر الذرة بين سورية ولبنان وبينهما وبين مصر وسواها من أقطار العروبة . وعسانا أخيرا أن لا نترك فلسطين فردوسا مفقودا كما كانت الحال معنا في الاندلس.

مصادر البحث

نفح الطيب للمقري

صفة جزيرة الاندلس للحميري

ظهر الاسلام لاحمد أمين

محاضرات في الحضارة العربية للدكتور عمر فروخ

طوق الحمامة للامام ابن حزم

تاريخ الفكر لانخل غونثالث

ابن زيدون لشوقي ضيف

حاضر العالم الاسلامي للامير شكيب أرسلان

استدراك :

وقع خطأ في ترتيب الأسطر في آخر الصفحة رقم ١٦ حيث حل السطر / ٢١ / محل السطر الأخير ٠
كما تصحح كلمة يجهزوهن في الصفحة ١٧ السطر ٣ بكلمة : يجهزونهن ٠

المحتوى

هـذا الكتاب

منذ أربعمئة وسبعين عامـاً تقريباً ومـع سقوط غرناطـة العربية في الأندلس عام ١٤٩٢ م ، قام الغرب المتوحش باحراق التاريخ ومصادرة الفكر وتمزيق الصفحات الأخيرة للحضارة العربية التي عاشت قريباً مـن ثمانية قرون وهي تشع في رقعـة واسعة شملت اسبانيا وجنوب فرنسا وشمال ايطاليا بالاضافة الى جزيرتي ساردينية وصقلية الايطاليتين حالياً ، ولولا هذا الإتلاف الجاحـد لعمت الحضارة العربية أوربا والعالم ٠

ورغـم احـراق التاريخ وطمس الحضارة العربية بهـدم المساجد والدور والمكتبات وانشاء محاكم التفتيش لمحو العروبة والعربية والاسلام من أوربا فقد بقيت لنا وللحضارة العربيـة والعالميـة قصور الزهراء والزاهرة والحمراء وبقي لنا الشعـر العربي الأندلسي الذي تحدث عن حضارتنا العربية هناك وهـذا ما رصده المؤلف لتكون ذكرى الأندلس حافـزاً لتحرير فلسطين والمحافظة على فردوسنا العربي في المشرق سليماً معافى وهي رسالة يساهم في أدائها هذا الكتاب ٠